الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

الرواية الفائزة بجائزة بوليتزر

بول هاردينغ
PAUL HARDING

تأملات

TINKERS

Telegram:@mbooks90

رواية

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

1

Telegram:@mbooks90

قبل وفاته بثمانية أيام، بدأ جورج كروسبي بالهلوسة، ومن حيث يرقد على سرير مُستأجر كالذي يستخدم في المستشفيات وُضع وسط غرفة الجلوس في منزله، رأى حشرات تتقاطر من وإلى شقوق في جصّ السقف. زجاج النوافذ، الذي لطالما كان حسن التفصيل صقيلاً، بدا متخلخلاً داخل إطاراته التي بالكاد تحمله. لعل النسمة القويّة التالية ستوقع الزجاج كله فيهوي على رؤوس أفراد عائلته الجالسين على الأريكة، وعلى مقعد الحب*، وعلى كراسي المطبخ التي جلبتها زوجته لتكفي الجميع. سيدفع الإعصارُ الزجاجي الجميعَ خارج الغرفة: أحفاده القادمين من كنساس وأتلانتا وسياتل، وشقيقته من فلوريدا، وسيعلق هو كالبائس على سريره، محاصراً بالزجاج المهشّم. سيخترق البيت غبار الطّلع ومعه عصافير الدوري، والمطر والسناجب الجريئة التي أمضى نصف عمره وهو يخبئها من مُطعِمي الطيور.

لقد بنى هذا البيت بنفسه؛ صبّ الأساسات، وشيّد السياج، وأوصل الأنابيب، ومدّ الأسلاك، ومد الجص والإسمنت على الجدران، وطلى الغرف. نزلت صاعقة مرّةً وكان هو بين أعمدة الأساس المكشوفة يلحم آخر مفصل في خزان المياه الساخنة. رمته الصاعقة على الحائط المقابل، ولكنه نهض وأنهى لحم المفصل. إنه يهوى العمل، فالشقوق في الجصّ لا تبقى شقوقاً، والأنابيب المسدودة تُسلّك، وألواح الخشب على الجدران الخارجية تُكشط باستمرار، وتُطلى بطبقة جديدة من الطلاء.

"أحضروا بعض الجصّ"، قال واستوى على سريره الذي بدا نافراً، بين السجادات الفارسية والأثاث الكولونيالي وعشرات الساعات القديمة."أحضروا بعض الجصّ. بالله عليكم، أحضروا بعض الجصّ، والأسلاك وكلّابين*. وسيحصل كل منكم على خمسة دولارات".

قالوا: "حاضر يا جدي".

حاضر بابا. هبّت نسمة قويّة عبر الشباك المفتوح خلفه فصّفت الرؤوس المنهكة، وقرقعت طابات البولينغ الإيطالية قليلاً على المرج في الخارج.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عند الظهر، مكث وحيداً، مؤقتاً، بينما انشغل أفراد العائلة بتحضير طعام الغداء في المطبخ. الشقوق في السقف تحولت إلى فجوات. غرقت العجلات المثبتة في قعر سريره في فوالق تتسع في خشب سنديان الأرضية تحت السجادة. ستنشقّ الأرضية في أي لحظة، وستصعد معدته المعظلة إلى صدره كما لو أنه على متن لعبة في ملاهي توبسفيلد. وبضربة مفاجئة تقصم الظهر، سيحطّ وسريره في القبو؛ فوق أطلال ورشته. تخيّل جورج ما سيراه، وكأن الانهيار قد حصل فعلاً: سقف غرفة الجلوس الآن على ارتفاع طابقين، وألواح الأرضيات الخشبية على قُمع مُسنّن، والأنابيب النحاسية ملتوية، والأسلاك الكهربائية المسحوبة من الجدران تبدو كالشرايين وأطرافها تتجه نحوه؛ إنّه مركز هذا الخراب المفاجئ كله. تمتمت الأصوات في المطبخ.

التفت جورج، آملاً رؤية امرأة كانت تجلس محجوبة عن ناظريه، وفي حضنها صحن كرتوني سكبت فيه سلطة البطاطا وشرائح لحم البقر الملفوفة، وفي يدها كأس كرتونية مملوءة بشراب الزنجبيل. لكن الخراب يراوح مكانه. ظنّ أنه نادى أحدهم، إلا أن أصوات النساء في المطبخ، والرجال في الفناء، همهمت بلا انقطاع. فاستلقى على كومة الحطام، وهو ينظر إلى الأعلى.

سقط عليه الطابق الثاني، بخشبه الصنوبري غير المكتمل، وسمكرته المسدودة من جانب واحد (لم يتمّ وصل الأنابيب المطلية بالمغسلة والمرحاض اللذين كان ينوي تركيبهما)، كما سقطت عليه علاّقات ملابس علّقت عليها معاطف قديمة، وصناديق ألعاب منسية، و"بازل"، وألعاب مكسورة، وأكياس صور العائلة - بعضها قديم لدرجة أنه يبدو وكأنه ظاهر على رقاقات صفيحيّة - كل ذلك انهمر عليه في القبو، وهو غير قادر حتى على رفع يده لحماية وجهه.

لكنه ما كان سوى شبح؛ جسم من لا شيء. الخشب والمعدن وحزمات الورق المقوّى المصبوغ بالألوان (تقدّم ستّ خطوات إلى "إيزي ستريت"! تصيح الجدّة الكبرى، نودين، المتدثّرة بشالها، وقد تيبّس عودها في أثناء اللعب، فيما هي تعبس في وجه الكاميرا. كانت تبدو مضحكة بقبعتها التي تشبه رابية تقام عليها جنازة

بخار، إذ تكسوها الزهور والشُباك) كل هذا وقع عليه. وبدلاً من أن تُسحق عظامه، ارتدّت الأغراض في أثناء سقوطها مثل ديكورات الأفلام، وكأنها - وهو أيضاً - صور طبق الأصل عن أغراض سابقة حقيقية.

ظلّ هكذا مستلقياً بين صور التخرّج، والسترات الصوفية القديمة، والأدوات الصدئة، وقصاصات الجرائد التي نشرت خبر ترقيته إلى رئيس قسم الرسم الميكانيكي في المدرسة الثانوية المحلية، ثم خبر تعيينه مدير الإرشاد، ثم خبر تقاعده، ومعلومات عن حياته بعد ذلك كتاجر ومصلح ساعات قديمة. القطع النحاسية المشغولة حول ساعات كان يعمل على إصلاحها، متناثرة في هذه الفوضى. نظر إلى علو ثلاثة طوابق، حيث دعامات السطح المكشوفة التي تمرّ بينها مضارب العزل الواضحة. لقد قام أحد أحفاده (أيهم؟)بتثبيت العوازل في مكانها قبل سنوات، والآن تراخى جزء كبير منها، وها هو يتدلّى من ألسنة من الصوف الزهريّ.

تداعى السقف، وترافق ذلك مع انهيارات جديدة من الخشب والمسامير، وورق القطران، والألواح الخشبية المتداخلة والمواد العازلة. ها هي السماء، إنها مليئة بالغيوم المسطّحة التي تمخر الأزرق مثل أسطول من السنادين. اعترى جورج ذلك الشعور الذي يلمّ بالمريض حين يخرج من البيت. فقد توقفت الغيوم؛ تسمّرت مكانها للحظة، ثمّ هبطت على رأسه.

ثم تبعتها زرقة السماء التي سالت من الأعالي لتصرّف في ذلك الجيب الإسمنتي الفوضوي. ثم وقعت النجوم، وقد تساقطت بفعل هزة ما. أخيراً، جاء دور الاتساع الأسود، فقد أفلت من ثباته ونزل كالستارة على الكومة بأسرها، ليغطي حيرة جورج المطمور.

قبل سبعين عاماً تقريباً من موت جورج، كان والده، هاورد آرون كروسبي، يعمل سائق عربة. كانت عربة خشبية، عبارة عن صندوق ذي أدراج، وقد رُفع على محورين لعجلتين ذاتي مكابح خشبية أيضاً. عشرات الأدراج، ثُبتت في كل واحد منها حلقة نحاسية تلتفّ عليها السبّابة مثل صنارة فيُفتح. في الأدراج فَراش، وزيت خشب، ومعجون أسنان، وجوارب نايلون، وصابون حلاقة، وشفرات مسنونة. وفي أدراج

أخرى قد تجد دهاناً لتلميع الأحذية، وشرائط للجزمات، ومقابض للمكانس وأخرى لتثبيت المماسح. في درج سرّي، احتفظ بأربع زجاجات من الشراب. كان يسلك شوارع خلفية وطرقات موحلة، عبر غابات كثيفة، تفضي إلى سهل مخبأ. هناك يقبع كوخ من جذوع الأشجار، بين نشارة الخشب وجذوع الأشجار المقطوعة. امرأة ترتدي فستاناً بسيطاً، وقد شدّت شعرها إلى الخلف بعيداً عن وجهها لدرجة أنها بدت وكأنها تبتسم، كانت تقف عند المدخل المتعرّج رافعة بندقية صيد وقائلةً: آه! هذا أنت يا هاورد. حسناً، أظنني بحاجة إلى دلو من التنك. في الصيف، كان يشمّ الخلنج، ويغني أحدهم يهزّ قارب أحلاميفيما يراقب الفراشات الملكية الضخمة الصاعدة من المكسيك (فراشات ناريّة تخفق بأجنحة ملتهبة، فقد تصوّر في نفسه بعضاً من شاعر). كان فصلا الخريف والربيع الأكثر ازدهاراً بالنسبة إليه. الخريف، لأن أهالي الغابات يجمعون مؤونة الشتاء (وهو يكدّس الأغراض من العربة على وريقات شجر القيقب المصفرة). أمّا الربيع فلأن المؤن تنضب لديهم لأسابيع قبل أن تفتح الطرقات أمام زيارته الأولى بعد انقضاء الشتاء. هكذا كانوا يقتربون من عربته كالسائرين في نومهم، نهمين وعيونهم تبرق. وكان أحياناً يعبر الغابة بطلبات التوابيت، لطفل أو لزوجة ملفوفة بالخيش وقد تخشّبت في سقيفة الحطب.

كان متعدد الكارات، يقوم بأعمال السمكرة وتطريق المعادن. كان جورج يجيد الحفر وصبّ الإسمنت لقبو البيت، وتقليم الأشجار، وتثبيت الإطارات الخشبية بالمسامير. وكان يمدّ الأسلاك، ويقوم بأعمال السمكرة، ويسوّي الأرضيات وألواح خشب الأسقف. كما كان يجيد رصف درجات القرميد، ويركّب النوافذ ويطلي إطاراتها. لكنه لم يكن يجيد رمي الكرة أو المشي مسافة ميل. كان يكره الرياضة. وعندما تقاعد باكراً، في الستين من عمره، ما عاد يفعل ما قد يزيد من سرعة نبضات قلبه إلا إذا اضطر إلى ذلك. وحتى في هذه الحالة، فإن المهمة غالباً ما تنطوي على اختراق دغل كثيف، سيراً على الأقدام، كي يصل إلى بركة أخرى مليئة بسمك الترويت. ولعل قلّة الرياضة كانت السبب - حينما خضع لجلسة الأشعة الأولى في علاج سرطان الأربية - في انتفاخ ساقيه، كحيواني فقمة نافقين على شاطئ، قبل أن تيبسا كحطبتين. وقبل أن يصبح طريح الفراش، كان يمشي مثل محارب قديم

مبتور الساق لم يلحق عصر الأطراف الاصطناعية، بل يترنّح وكأنما ثُبّتت على وركيه ساقان خشبيتان بمفصّلات حديدية. وحين يخطر لزوجته أن تلمس ساقيه في السرير ليلاً، فإنها تروح تفكر في شجرة بلوط أو قيقب، وكان عليها أن تحوّل تفكيرها إلى شيء آخر كي لا تتخيل نفسها متوجهة إلى ورشته في القبو، مُحضِرة ورق السَنفَرَة والطلاء، ومسنفرة ساقيه قبل أن تطلوهما كما لو أنهما قائمتا قطعة أثاث. في إحدى المرات، صهلت بصوت عالٍ محاولة كبت ضحكتها حين فكرت: زوجي الطاولة. لكنها تضايقت كثيراً بعد ذلك إلى حدّ أنّها بدأت بالنحيب.

إن عناد بعض نساء الريف اللواتي تواصل معهن هاورد في جولاته - في اعتقاده - عزز لديه صبراً عقلانياً لا ينضب، أو إنه كان ليظنّ ذلك لو أنه فكّر فعلاً في الموضوع. فحينما تتوقف شركة صابون عن صنع مسحوق تنظيف ما لصالح تركيبة جديدة، ثم تغيّر تصميم العلبة التي تغلف الصابون الجديد، يتحمل هاورد جدالاً كان لينهيه سريعاً لولا أن خصومه ههنا هم زبائنه دافعو المال.

-أين الصابون؟

-هذا هو الصابون.

-العلبة مختلفة.

-نعم، لقد غيروا العلبة.

-وما الخطب في العلبة القديمة؟

-لا شيء.

-إذاً، لماذا غيروها؟

-لأن هذا صابون أفضل.

-هذا صابون مختلف؟

-إنه أفضل.

-لم تكن هناك مشكلة في الصابون القديم.

-بالطبع لا، لكن هذا أفضل.

-إن لم يكن هناك خطب في الصابون القديم، فكيف يكون هذا أفضل؟

-حسناً، إنه ينظف بشكل أفضل.

-كان ذاك ينظف جيداً من قبل.

-هذا ينظف أفضل، وأسرع.

-حسناً، سأكتفي بأخذ علبة من الصابون العادي.

-هذا هو الصابون العادي.

-ألا أستطيع الحصول على الصابون العادي الذي أشتريه كل مرة؟

-هذا هو الصابون العادي، على كفالتي.

-لكنني لا أحب تجربة صابون جديد.

-لكنه ليس جديداً.

-كما تريد يا سيد كروسبي. كما تريد.

-حسناً، سيدتي، يبقى لي معك قرش بعد.

-قرش إضافي؟ علامَ؟

-سعر هذا الصابون أغلى بقرش واحد، فهو الآن أفضل.

-علي أن أدفع قرشاً إضافياً لصابون مختلف في علبة زرقاء؟ إذاً، سآخذ علبة من الصابون العادي.

اشترى جورج ساعة معطّلة من مزاد للبضائع المستعملة. أهداه صاحبها معها نسخة أعيدت طباعتها من كتيب تصليحات يعود إلى القرن الثامن عشر. بدأ ينخر

حول أحشاء الساعة العتيقة. فهو يعرف - نظراً إلى كونه آلاتياً خبيراً - معادلات التروس، والمسامير الكبّاسة، والفيزياء، وقوة الأشياء. ونظراً إلى كونه يانكي* من الساحل الشمالي، كان يعلم أين تستلقي الأموال الكثيرة، وتغفو، وتحلم بطواحين الهواء وحجّارين، وبشرائط التلغراف، وبصيد الثعالب. لقد اكتشف أن المصرفيين يجزلون الدفع كي تبقى تلك القطع الأثرية الموروثة قادرة على إعطاء الوقت الصحيح. يمكنه أن يبدّل سنًا مهترئةً يدوياً؛ إذ يسطّح الساعة على وجهها، ثمّ يفك البراغي الخلفية، ولعله لا يحتاج سوى إلى سحبها من مكامنها المصنوعة من خشب الأرز أو الجوز، ثم ينفض الغبار عن الشكر، ويرفع الغطاء الخلفي كما لو أنه غطاء صندوق الكنز. يقرّب مصباح الجوهري، ذا اليد الطويلة، فينهمر الضوء من فوق كتفه. يتفحص النحاس الغامق، وينظر إلى الترس الصغير متمهلاً عند الأوحال والزيت العالق به، ثمّ ينظر إلى تموجات زرقاء وخضراء وبنفسجية لمعدن مسطّح أو ملتوٍ أو مُلَحّم، ويدخل إصبعه في قلب الساعة، ويتلاعب قليلاً بعجلة الهروب (لكل جزء اسم مثالي؛ الهروب: هو آخر الآلة، حيث تتسرب الطاقة وتتحرر، وتهزم الوقت). يقرّب أنفه أكثر إلى حيث تفوح من المعدن رائحة حمضية، ويبدأ بقراءة الأسماء المحفورة في الداخل: إيزرا بلوكسهام؛ 1794، جيو إ. تيغز؛ 1832، ثوس فلاتشهارت؛ 1912، ومن ثمّ يرفع الجزئيات الداكنة من بطن الساعة ويغطسها في محلول الأمونياك، ثمّ ينتشلها مقاوماً الرائحة التي تحرق الأنف وتسيل الدموع، وينظر إليها عبر دموعه وهي تبرق وتلمع كالنجوم. يبرد الأسنان ويطرق البطانة المعدنية، ثمّ يركّب الزنبرك. لقد أصلح الساعة؛ يضيف اسمه.

صفّاح، صفّاح. تِن، تِن، تِن. تنك، تنك، تنك. تنتكة يقال للرنّة. ثمة رنّات للدلاء والأواني. وهناك أيضاً الرنّة التي في أُذني هاورد كروسبي؛ رنّة بدأت على بعد مسافة، ثم اقتربت حتى استقرّت في أذنيه، بل جعلتهما جحراً لها. ضجّ رأسه بالطنين كما لو أنه عصا في قلب جرس. قفز البرد إلى أصابع قدميه، وركبت موجات الرنّة جسمه كله حتى اصطكت أسنانه وارتجفت ركبتاه، وبات عليه أن يحضن نفسه كي لا ينحلّ تماماً. هي هالته، كهربائية كيميائية باردة تلفّ كيانه قبل أن يصاب بنوبة كاملة. كان هاورد مصاباً بالصرع، وعندما يُصاب بالنوبة، تبعد زوجته كالين بلاك -

من كيبيك، إنما من فرع عائلي أقل شأناً وأكثر شدة - المقاعد والطاولات، وتسحبه إلى وسط أرضية المطبخ، ثمّ تلفّ منديلاً حول غصن صنوبر كي يعضّ عليه فلا يبلع، لسانه أو يقضمه. إذا جاءت النوبة سريعة، فإنها تدفع بالغصن عارياً بين أسنانه ليستيقظ على نشارة الخشب في فمه، إضافة إلى طعم الرحيق، ورأسه كمرطبان زجاجي مليء بالمفاتيح القديمة والبراغي الصدئة.

لإعادة ترتيب الساعة المفككة، يُوضع الغطاء الخلفي على قطعة قماش ناعم، ويُفضّل الشاموا السميك بعد طيّه مرات عدة. تعاد كل عجلة ومحورها إلى الفجوة الخاصّة بهما، بدءاً من العجلة الكبرى وبكرة زنبركها، ذلك الشكل المخروطي العجائبي الذي أهدى السيد دافنتشي البشرية إياه، وصولاً إلى الصغرى، حيث تنخرط أسنان واحدة في ياقة الأخرى، وهكذا حتى تستقر كل من عجلة الموازنة لمحرك ضربات الساعة، وعجلة الهروب لمحرك آخر، في مكانيهما المناسبين. والآن، ينظر الساعاتي إلى ذلك الوجه المفتوح؛ تلك البدعة من كتاب قصص الجنيات، ويوجّه المعدن غير الثمين إلى الأمام والخلف، مثل الآلة الكسولة في الحلم. لا يمكن ضبط وقت الكون هكذا؛ إذ إنّ هذه الآلات القديمة المعقوفة لا تملك سوى ضبط الساعات الرائعة لأشباح صعبة المراس. تؤخذ الصفيحة الأمامية باليد وتُركّب على محور الزنبرك المسؤول عن ضربات الساعة، وهذه الصفيحة هي الكبرى بين القطع المجففة في الشمس والأكثر سهولة من حيث التركيب. بعد ذلك، يرفع الساعاتي الطبقات المتقلقلة، من أمعاء الساعة إلى مستوى العين، مع الإمساك بالأجزاء كلها بالضغط على الصفيحتين الممسكتين بالتركيبة مع الانتباه. فلا نشدّ القبضة على الأجزاء المتشابكة كي لا نؤذي الأطراف الرقيقة غير المستوية في استدارة واحدة. وفي الوقت نفسه يجب ألا نرخي القبضة حتى لا تفلت الأجزاء وتتفكك بين أيدينا، فتتناثر في زوايا مخبأة ومغبرّة من ورشة الساعاتي متسببة في الكثير من الانتهاكات. وفي حال أنهى الساعاتي الصبور محاولاته مع الساعة الخربة، ودفع عجلتها الكبرى بإبهامه قليلاً لتصدر صريراً وهذراً بدلاً من الهمهمة والأزيز المعروف في منطق النحاس، فهذا يعني أن العملية برمتها يجب أن تعاد مجدداً، وإنما بشكل معاكس؛ بعقلانية وهدوء، حتى يُقضى على أسباب الخلل. بالنسبة إلى الساعات

البسيطة، إن عملية إعادة التشغيل سهلة. أما البدع الأكثر تكلفاً، كتلك التي تتمتع بميزات إضافية وتحتوي مثلاً على مجسّم للقمر أو لأبله يتلاعب بحبات الفاكهة، فهذه تحتاج إلى مهارة وعناد غير متناهيين. (لقد سمع المؤلف عن ساعة يفترض وجودها في شرق بوهيميا، وهي تشبه شجرة بلوط كبيرة، قرصها مشغولٌ بالحديد والنحاس. وكلما تغيرت فصول بلادها، أنبتت الأغصان ألف ورقة نحاسية صغيرة، تُداخل كل ورقة خيوط مغزل رقيقة واحدتها كالشعرة، تتفاوت ألوانها بين الأخضر الزمردي والأحمر المعدني. ثم، وبفضل دينامية مذهلة من داخل العلبة الأساسية (وقد صممت لتشابه الأعمدة الميثولوجية التي اعتقد ذات يوم أنها تحمل الأرض)، تطلق الأغصان أوراقها التي تنهمر لولبياً على خيوطها لتكسو الجزء السفلي من وجه الساعة. إن كانت هذه الآلة متواجدة فعلاً، فإن السيد نيوتن شخصياً ما كان ليجلس تحت شجرة أكثر إدهاشاً).

من كتاب **"الساعاتي العقلاني"**

للكاهن كينر دافنبورت،**1783**

تذكر جورج كروسبي أشياء كثيرة خلال احتضاره، إنما من دون السيطرة على ترتيب ذكرياته. إنّ نظرته إلى حياته، وإجراءه عملية التقييم التي لطالما تخيل أن الإنسان يجريها عشية نهايته، عنيا أن يكون شاهداً على حمل ثقيل ينقل، قطع الفسيفساء التي تدور وكأنها في دوامة، لتعيد الرسم، ودائماً بألوان معروفة، وعناصر مألوفة. وحدات وجزيئات، تيارات حميمة لكنها الآن مستقلة عن إرادته، تريه أنامختلفة كلما حاول إجراء التقييم.

قبل موته بمئة وثمانٍ وستين ساعة، تسلل من نافذة القبو إلى دار عبادة ويست كوف الميثودية، وقرع الجرس ليلة الهالويين. انتظر في القبو حتى يأتي أبوه ويضربه بالسوط على فعلته هذه، ولكنّ والده ضحك بشدة، ضارباً كفّه بفخذه، لأن جورج حشا بنطاله عند المؤخرة بأعداد قديمة من جريدة ساترداي إيفنينغ بوست. جلس إلى مائدة العشاء صامتاً، خائفاً من النظر إلى أمه، إذ قاربت الساعة الحادية عشرة ليلاً، وأبوه لم يصل إلى البيت بعد، وهي تصر على إجلاس الجميع إلى مائدة

البسيطة، إن عملية إعادة التشغيل سهلة. أما البدع الأكثر تكلفاً، كتلك التي تتمتع بميزات إضافية وتحتوي مثلاً على مجسّم للقمر أو لأبله يتلاعب بحبات الفاكهة، فهذه تحتاج إلى مهارة وعناد غير متناهيين. (لقد سمع المؤلف عن ساعة يفترض وجودها في شرق بوهيميا، وهي تشبه شجرة بلوط كبيرة، قرصها مشغولٌ بالحديد والنحاس. وكلما تغيرت فصول بلادها، أنبتت الأغصان ألف ورقة نحاسية صغيرة، تُداخل كل ورقة خيوط مغزل رقيقة واحدتها كالشعرة، تتفاوت ألوانها بين الأخضر الزمردي والأحمر المعدني. ثم، وبفضل دينامية مذهلة من داخل العلبة الأساسية (وقد صممت لتشابه الأعمدة الميثولوجية التي اعتقد ذات يوم أنها تحمل الأرض)، تطلق الأغصان أوراقها التي تنهمر لولبياً على خيوطها لتكسو الجزء السفلي من وجه الساعة. إن كانت هذه الآلة متواجدة فعلاً، فإن السيد نيوتن شخصياً ما كان ليجلس تحت شجرة أكثر إدهاشاً).

من كتاب **"الساعاتي العقلاني"**

للكاهن كينر دافنبورت،**1783**

تذكر جورج كروسبي أشياء كثيرة خلال احتضاره، إنما من دون السيطرة على ترتيب ذكرياته. إنّ نظرته إلى حياته، وإجراءه عملية التقييم التي لطالما تخيل أن الإنسان يجريها عشية نهايته، عنيا أن يكون شاهداً على حمل ثقيل ينقل، قطع الفسيفساء التي تدور وكأنها في دوامة، لتعيد الرسم، ودائماً بألوان معروفة، وعناصر مألوفة. وحدات وجزيئات، تيارات حميمة لكنها الآن مستقلة عن إرادته، تريه أنامختلفة كلما حاول إجراء التقييم.

قبل موته بمئة وثمانٍ وستين ساعة، تسلل من نافذة القبو إلى دار عبادة ويست كوف الميثودية، وقرع الجرس ليلة الهالويين. انتظر في القبو حتى يأتي أبوه ويضربه بالسوط على فعلته هذه، ولكنّ والده ضحك بشدة، ضارباً كفّه بفخذه، لأن جورج حشا بنطاله عند المؤخرة بأعداد قديمة من جريدة ساترداي إيفنينغ بوست. جلس إلى مائدة العشاء صامتاً، خائفاً من النظر إلى أمه، إذ قاربت الساعة الحادية عشرة ليلاً، وأبوه لم يصل إلى البيت بعد، وهي تصر على إجلاس الجميع إلى مائدة

دموعه، وتسمّر في مكانه ناظراً إليها من فوق عناوين جريدة الصباح، ثم انحنى عليها مقبّلاً حاجبها المشبع بالكافور. وإزاء هذه المبادرة، كانت تقول له: إياك أن تحاول التخفيف عني! لقد ألقى ذلك الرجل ظلاً أسود أبديّاً على سلامي الداخلي. المخبول اللعين! وحتى ردّ فعلها ذلك كان يُشعِر جورج بالرضا، فابتهالاتها التي لا تنتهي كانت تهدئ من روعها، وتذكّرها بأن تلك الحياة قد ولّت.

أراد جورج، المستلقي على سرير الموت، رؤية والده مجدداً؛ أراد تخيّله. كلما حاول التركيز والعودة إلى الوراء، وكلما حفر عميقاً وبعيداً من الحاضر، أعادَه إلى جسمه المهترئ وذهنه المشوّش، ألَمٌ ما، أو ضوضاء، أو أحدُ الذين يقلّبونه على جنبيه لتغيير أغطية السرير فيما السموم المتسربة من كليتيه المسدودتين بالسرطان تجري في دمه الذي يزداد كثافة واسوداداً.

عصر ذات يوم، في الربيع الذي سبق وفاته، قرّر جورج، الذي كان مرضه يشتدّ، أن يُملي ذكرياته وحكايات حياته على آلة تسجيل. كانت زوجته قد خرجت للتسوق، فنزل حاملاً آلة التسجيل إلى طاولة عمله في القبو. فتح الباب بين الورشة ومستودع الأدوات. كان هناك موقد خشبي في غرفة الأدوات، بين الثقّابة ومخرطة الحديد. جمّع بعض الجرائد القديمة وألقى بها في الموقد مع ثلاث حطبات من كمية الحطب التي كان يكدّسها في زاوية بعيدة من الغرفة؛ قرب الباب. أشعل ناراً وعدّل مسرب اللّهب على أمل أن يدفئ سريعاً هذا الإسمنت البارد في القبو. ثم عاد إلى طاولته في الورشة. كان الميكروفون الرخيص موصولاً بآلة التسجيل التي لم ينجح في إيقافها عمودياً على القوائم المثبتة في أسفلها. فقد كانت تلك القوائم خفيفة لدرجة أن التواءة السلك الممتد بين الميكروفون وآلة التسجيل ما فتئت توقِع الآلة على وجهها. حاول جورج تمسيد السلك، لكن الميكروفون لم يستقِم، فما كان من جورج إلا أن وضعه فوق آلة التسجيل ذات الكبسات الثقيلة والتي تتطلب بعض الجهد كي تستجيب لأصابع صاحبها. على كل كبسة حروف ملغّزة، وكان على جورج تجربتها أولاً، قبل أن يثق بها ويسلّمها صوته. في آلة التسجيل شريط ذو ملصَق زهري اللون كُتب عليه مختارات من "البلوز"، ملكية فكرية لهال براوتون جو كريك، بنسلفانيا. تذكّر جورج أنه وزوجته اشتريا هذا الشريط خلال دراسة إحدى المواد

في إلديرهوستل كولدج في فصل صيفي قبل سنوات عديدة. عندما ضغط جورج زر التشغيل للمرة الأولى، صدر صوت رجل، رفيع وبعيد. وبدلاً من أن يعيد الشريط إلى أوله، ليسجّل على ما سمعه، شعر جورج أن هذا الصوت الشاكي يمكنه أن يكون مقدمة مناسبة لحديثه المسجّل، فضغط زر التسجيل. انحنى قليلاً إلى الأمام باتجاه الميكروفون، وذراعاه مشبوكتان ومستريحتان على طرف الطاولة وكأنه سيجيب عن أسئلة في جلسة محاكمة. بدأ بشكل رسمي: اسمي جورج واشنطن كروسبي. ولدت في ويست كوف بولاية ماين، عام 1915. انتقلت إلى أنون في ماسا شوستس عام 1936. بعد الإدلاء بالمعلومات الإحصائية، اكتشف جورج أنه لا يتذكر من حياته سوى الحكايات الهزلية والفاحشة قليلاً، والتصرّفات البلهاء بعد احتساء الكثير من الشراب خلال رحلات صيد السمك، والتي غالباً ما كانت تتمحور حول الاصطدام بالحارس، وهو يحمل سلة مليئة بالسلمون المرقّط من دون أن يملك رخصة صيد، أو حين يكون حاملاً مسدساً أحضره معه إلى الغابة طبيب صديق: إذا كان المسدس من عيار تسعة ميلليمترات، فسأقبّل مؤخرتك العارية المتجمدة هنا على الثلج... على ما تقول كلمات أغنية بعنوان "وافقي يا أمي، فالأمر أفضل إن كنتِ مستيقظة". وغيرها من المواقف. إنما، بعد عدد من تلك القصص، بدأ يحكي عن والده ووالدته، عن شقيقه جو، وشقيقاته، وعن الدراسة في مدارس ليلية، وعن أنه أمسى أباً. تحدث عن الثلج الأزرق وبراميل التفاح، والخشب المتفسّخ بسبب الجليد، والذي يُحدث رنّة خاصة عندما تحاول تحطيبه. كما تحدث عما يعنيه أنه أصبح جدّاً للمرة الأولى، وعن تفكيره في ما سيخلّفه وراءه بعد موته. ولما انتهى الشريط، بعد ساعة ونصف الساعة (وكان قد قلبه على الوجه الثاني من دون حتى أن يعي أنه فعل ذلك)، ولما قفز زرّ التسجيل من مكانه محدثاً أزيزه الخاص، كان جورج ينتحب بصوت عالٍ متفجّعاً على خسارة ذلك العالم؛ عالم النور والأمل. أصاب منه التأثّر مبلغاً عظيماً، فسحب الشريط من الآلة وقلبه على الوجه الأول، وأعاده إلى الجيب المفصّل على مقاسه، ثم ضغط زر التشغيل مجدداً ظنّاً منه أنه سيحفظ مزاج الحزن النقي والنظيف ذاك إذا استمع إلى سرده الذي سجّله لتوه. ظنّ أن مذكراته ستبدو بالنسبة إليه وكأنها لغريب جدير بالإعجاب، لشخص يعرفه لكنه سيتعرّف إليه أكثر، وبسرعة، وسيحبّه بصدق. غير أن ما صدر عن الآلة كان صوتاً أنفياً وذاوياً، بل لم

يبدُ له أنه صادر عن شخص متعلم، إذ بدا وكأنه ريفي أغرّ جيء به، وربما أيضاً على سبيل السخرية، للشهادة على أمور مبجلة، وكأنما سبب تواجده ليس الشهادة بحد ذاتها، بل تلعثمه في أدائها أمام مجلس شيوخ جليل غير ذلك الذي نعرفه نحن البشر. استمع إلى نفسه مدة ستّ ثوانٍ قبل أن يوقف الآلة ويسحب الشريط ليرميه في الموقد الخشبي.

علت الأعشاب والأزهار البرية على الطرقات الموحلة حتى لامست أسفل العربة التي يقودها هاورد. من الواضح أن دببة مرّت من هنا أيضاً، وأعملت قوائمها في الأكمة بحثاً عن فاكهة للأكل.

كانت لدى هاورد علبة لعرض بضائع من نوع مغاير، مصنوعة من خشب الصنوبر، ومربوطة بشرائط من الجلد الاصطناعي وقد ذهنت لتبدو وكأنها من خشب الجوز. داخلها مفروش بالمخمل، وفيه أقراط رخيصة مطلية بماء الذهب، ومعها حليّ من أحجار نصف كريمة. كان يفتح تلك العلبة لنساء ريفيات جامحات حين يخرج أزواجهن لقطع الأشجار أو لحصاد الأراضي الخلفية الصغيرة. لقد أراهنّ القطع الستّ نفسها في العام الماضي قائلاً في سرّه: هذا هو الموسم؛ المؤونة جاهزة، وأكداس الحطب مرتفعة، وريح الشمال بدأت تهبّ، والبرد يحلّ، والليل يهبط أبكر قليلاً كل يوم، والعتمة والثلج يقتربان من ناحية الشمال باتجاه خشب الأكواخ الغضّ، والعارضة الخشبية الخشنة في السقوف المائلة تنوء مزّاتٍ، بل تطقطق تحت وطأة الظلام والثلج، فتدفن تحتها عائلات نائمة، الظلام والثلج، وأحياناً أحمر السماء المتسلل من بين الأشجار: القلب المفطور لشمس باردة. ردّد لنفسه: "اشتري العقد، واستلّيه من بين ثنايا فستانك، واتركي الضوء الخفيف المنبعث من نار المدفأة ينعكس عليه في ساعة متأخرة من الليل، فيما تنتظرين انهيار السقف، أو نفاد إرادتك، أو الثلج؛ حتى تصبح سماكته قابلة للتكسير بالفأس وأنت تنتعلين جزمة زوجك على البحيرة المتجمدة في منتصف الليل. الجرح الجاف الذي تتسبب به الفأس على الجليد صغير تحت النجوم المتجمدة، غطاء السماء عازل للصوت، لدرجة أن زوجك لا يتحرك في أثناء نومه في الكوخ القريب، إذ لا يسمع ولا يأتي راكضاً في الصقيع بلباس نومه لينقذك من إحداث حفرة في الجليد والانزلاق فيها كما لو

أنها شريان أزرق. الانزلاق إلى قعر البحيرة الأسود المليء بالظمي، حيث لن تري شيئاً، ولربما تشعرين بتقلبات السمك نصف النائم في تلك اللجّة إذا أيقظه غطسك بفستانك الصوفي والجزمة الكبيرة معكّراً أحلامه الشتوية البليدة ببحور منسية. لعلك لا تشعرين بذلك فيما أنت تصارعين بملابس كالقطران البارد، وفيما أنت تبطئين وتهدئين، ثم تفتحين عينيك بحثاً عن نبض فضي، عن تداخل الحراشف، وحين تغمضين عينيك مجدداً تشعرين بجفنيك زلقين وبجلدك الشمكانيّ* وبالدم تحته بارداً فجأة، وتجدين أنك لا تكترثين، بل لا تريدين أخيراً أكثر من الطنين الجديد الفجائي البسيط الذي يغزل بين عينيك. الجليد أسمك من قدرتك على كسره. لن تفعلي ذلك أبداً. لا يمكنك. إذاً، اشتري الذّهب، دفّئيه بجلدك، واتركيه ينزلق إلى حضنك حينما تجلسين قرب المدفأة، وكل ما ستضطرين إلى رؤيته، في حال لم تنجحي، هو زوجك الذي يتلهّى بلبانة، أو أخاديد يديكِ المتشققتين".

لم تشترِ امرأة أي قطعة حُلي. قد تتناول إحداهن عقداً من مهده المخملي، لتفرك حجارته بين أصابعها. وقد تقول: فعلاً، حينما يبادرها هو قائلاً إن القطعة جميلة. في بعض الأحيان، كان يرى وجه امرأة ينقبض لجزء من الثانية، إذ تحرّك الحليّ آمالاً شخصية نصف منسية، حلماً من بدايات الزواج البعيدة. قد تحبس نَفَسها، وكأنما شيء طويل معلّق بمسمار أو مربوط بسلسلة يوشك على السقوط، وإنما لثانية من الزمن فقط. ولا تلبث المرأة منهن أن تعيد أغراضه الصغيرة الجميلة إلى مكانها. لا، لا، لا أظن يا هاورد. تعود العلبة إلى الدُرج، ويستدير بعربته في الفناء ليسلك الطريق الخارجة من الغابة وقد بدأ الشتاء فعلاً بعزل أهل الريف خلفه بالخِتم السنوي.

كان العميل المحلي لبضائع هاورد رجلاً يدعى كولن؛ كولن المخادع. مرة كل شهر، كان يجلس إلى طاولة في الغرفة الخلفية في متجر ساندر ويروح يحتال على موكّله في رزقه. يفرش إيصالات هاورد على الطاولة، وينحني مطيلاً النظر إليها من خلف دخان السيجارة المتدلية دوماً من بين شفتيه. كان هاورد يفكر، حين يراه وهو يفعل ذلك، في أن عميله يبدو كمن يوزّع ورق اللعب لجلسة ميسر، أو لاستعراض حركات ألعاب الخفة. ينظر كول شذراً إلى الإيصالات ويقول: خمس علب فقط من ماء القِلي (محلول هيدروكسيد الصوديوم أو هيدروكسيد البوتاسيوم)، لو كانت ستّ علب

لحظيت بحسم. عشرة رؤوس للمماسح القطنية. جيد، لكن التكلفة ارتفعت للأسف. عليّ أن أبيع دزينة الآن. أحسم لك بضعة قروش. ماذا عن الصابون الجديد؟ لا آبه لصعوبة تغيير عادات أولئك النسوة اللواتي يبدون مثل الدجاجات خلف الغابة، فأنت البائع. وإلا فماذا تفعل معهن هناك؟ أتشم الأزهار؟ اللعنة يا كروسبي، ماذا تفعل بعلب الثلج والغسالات؟ كم كتيباً ترويجياً وزّعت؟ لا يهمني إن كانوا لا يستوعبون الآلات الجديدة، فهذا هو المستقبل، وتعليمات التركيب هي أسياد البيع المبجلة! لَمّ كولن الإيصالات بحركة واحدة من يده ودسّها في حقيبته، ثمّ أخرج من جيبه لفافة. استلّ من اللفافة ورقة من فئة العشرة، وسبع ورقات من فئة الواحد. وأدخل يده الثانية في جيبه الآخر ليخرجها مليئة بالفكّة التي وضعها على الطاولة (مثل حجارة الزّهر كما فكّر هاورد)، ثم دحرج خمسة وسبعين سنتاً من الفكّة بضربة من إصبعه معيداً البقية إلى جيبه بسرعة فائقة بدت كما لو أنها حركة خفّة من ألاعيبه. وَقّع هنا يا كروسبي. كيف ستصبح واحداً من الاثني عشر خاصتي؟كان هذا الجزء الذي يخشاه هاورد في كل لقاء مع وكيله؛ حينما يستشهد كولن ببروس بارتون. من هو رجل الأعمال الأفضل على الإطلاق يا كروسبي؟ البائع الأفضل؟ المُعلِن الأفضل؟ من؟ نظر هاورد إلى العقدة في ربطة العنق الرخيصة حول عنق كولن وابتسم، محاولاً ألا يبدو مهزوماً إذا لم يُجِب عن السؤال. هيا، كروسبي. ألم تقرأ الكُتيّب؟ لقد أعطيتك إياه بسعر الكلفة تقريباً!تنهّد هاورد وقال: يا الله! هذا صحيح. قال الوكيل وقد نهض عن كرسيّه، وضرب قبضته على الطاولة رافعاً إصبعاً باتجاه السماء عبر أحذية الثلج الجديدة المعلّقة في أعلى الجدران: يا الله!

قبل موته بمئة واثنتين وثلاثين ساعة، استيقظ جورج من صخب الكون المنهار على عتمة الليل، وعلى صمت لم يفهمه بعدما انجلت جَلَبة كوابيسه. لا ضوء في الغرفة سوى ذاك المنبعث من مصباح ذي قاعدة قصديرية على طرف طاولة بالقرب من الأريكة. الأريكة بموازاة سرير المستشفى، وعلى أحد جانبيها جلس أحد أحفاده منحنياً ليقترب من الضوء؛ لقد كان يقرأ.

قال جورج: "تشارلي."

قال تشارلي: "جدي". وأنزل الكتاب إلى مستوى فخذيه.

قال جورج: "ما كل هذا السكون بحق الله؟."

قال تشارلي: "الوقت متأخر."

قال جورج: "أحقاً؟ لكن الهدوء أكثر من المعتاد". أدار جورج رأسه يسرةً ويمنة. إلى يساره كرسي الملكة آن والمدفأة التي لم يبنها طوال ثلاثين عاماً، أي منذ أن أقلع عن تدخين الغليون. تذكّر شجرة الغليون التي كان يحتفظ بها في القبو، على طاولة العمل في الورشة. في البداية، ظنّ أن حماسته للغليون تشبه تلك التي شعر بها نحو الساعات، وكان قد اشترى شجرة الغليون من سوق البرغوث في نيوباريبورت. كيف أتذكّر ذلك؟فكّر وهو مستلق على سريره، قلقاً من هذا الصمت الذي كان تأثيره فيه كالضوضاء. كان قلقاً من اكتشاف مصدره، وبدلاً من ذلك، ها هي في خاطره، سوق البرغوث في نيوباريبورت وطاولة الخرضوات مع شجرة الغليون. ومع ذلك كله تذكّر هيئة المحتال الذي أدار المبيعات (كان أشبه ببحار متقاعد أو تاجر بحري، كان يرتدي سترة إيرلندية ويعتمر قبعة يونانية)، وصوته أيضاً (صوت يانكي مملّح عبْر البانغور ورأس بريتون). كما تذكّر تقريباً كلّ غرض كان موضوعاً على تلك الطاولة (أدوات البستاني الصدئة، دمى من دون خرزات العيون، علب صفيح فارغة من تنبكها، بكرات الشرائط الموسيقية المهترئة، ميزان حرارة من السكّر، تمثال لكريستوفر كولومبوس). وتذكّر كيف فاوض الرجل على سعر الشجرة (كم أزيد على السنتات العشرة مقابل شجرة الغليون هذه؟ خمسة دولارات! كيف وصل لصّ مثلك إلى هنا؟ دولارين؟ إذاً، عليك أن تحتفظ بها قليلاً بعد. دولاراً وربع؟ اشتريت). اشترى دزينة غلايين من بائعين مختلفين، وعلّقها على الشجرة، وجرّب العديد من أنواع التنبك الفاخر، شرط استخدام كل غليون لنوع واحد من التنبك فقط. خلال أسبوع واحد كان قد دخّن أرخص الخلطات المنزلية، من عند البائع المحلي، في غليون حصل عليه مقايضةً بعلبة مليئة بقطع غيار الساعات، وكان يشك في أن الغليون ليس مصنوعاً من الخشب بل من البلاستيك، وذلك بسبب مذاق مُرّ يبقى من كل بضع نفخات دخانية. دخّن غلايين كثيرة فيما هو يصلح الساعات. في

آخر النهار، كان يجلس قرب النار، بعد العشاء، على كرسي الملكة آن (الذي اشتراه بسعر رخيص من مزاد عقاري لأن اثنتين من قوائمه مكسورتان)، ويدخّن غليونه الأخير. ولمّا ظهرت على شفته السفلى تقرّحات تنذر بالسرطان، رمى كل غلاييننه، مع الشجرة وصفائح التنبك، مكتفياً بتدخين السيجار، بين الفينة والفينة، لا سيما عندما يتوجّب عليه كنس الوريقات الميتة في المرأب. وبالرغم من أنه لم يجلس على كرسي الملكة آن منذ أن أقلع عن تدخين الغليون، فقد بقي منه ظلّه المرسوم على ظهر الكرسي. لم تكن لطخة بقدر ما كانت حدود صورته المرسومة بالقماش الداكن والتي لا تُرى إلا بقدر معيّن من الضوء ومن زاوية بعينها، ولو كان قادراً على النهوض من سرير مرضه والجلوس على الكرسي لاتفق جسده تماماً مع مقاس صورة الظلّ تلك.

كان رأسه مرفوعاً على الوسائد. استطاع أن يرى قبالته، عند قائمتي السرير، جزءاً صغيراً من السجادة الفارسية على الأرض. بعد السجادة، قرب الحائط الأخير، بدت له طاولة الطعام. كانت بعرض الحائط تقريباً، وعلى كلٍّ من طرفيها، كرسيّ ذو ظهر مدرّج له مقعد من القصب المحبوك. فوق الطاولة (التي يُوضَع عليها دائماً وعاء خشبي مملوء بالفاكهة أو زهريّة من الكريستال مملوءة بأزهار من الحرير)، غلّفت لوحة زيتية لطبيعة صامتة. مشهد مُعتِم وغائم تنيره ربما شمعة واحدة لا تُرى ضمن الإطار. ففي اللوحة تظهر طاولة وُضعت عليها سمكة فضية، ورغيف خبز داكن على لوح القصّ، وقالب جبن محمّر، ونصفا برتقالة يظهر باطناهما للمتلقي، وكأس شراب فرنسي من الزجاج الأخضر يلتف عليها غصن ملولب، وما بدا كالأزرار الزجاجية المثبتة على قاعدتها. جزء كبير من الكأس مكسور، وغبار الزجاج الفضي يلمع عند قدم الكأس. على لوح التقطيع، أمام السمكة والرغيف، سكين ذات مقبض قصديري. وهناك قضيب أحمر، طرفه أبيض ويمتد موازياً للسكين. لم يتمكن أحد من تحديد ماهية ذلك القضيب الصغير. قال أحد الأحفاد ذات مرة، إنه يشبه عصا لاعب الخفة. وفي الواقع، إنّ ذلك الشيء يشبه فعلاً العصا التي يستخدمها الهواة لاستخراج الأرانب أو لجعل أباريق المياه تختفي تحت قبعاتهم في حفلات ميلاد الأطفال. غير أن بقية اللوحة - ولا يهم إن كانت قد رُسمت مؤخراً أو منذ زمن بعيد - تبدو

ذات أصول دنماركية أو فلامنكية، أو ربما هي متأثرة بهما، والقضيب بالتأكيد ليس للتورية وليس نكتة ذكية أيضاً. وهكذا، ظلّ القضيب لغزاً منزلياً، رضي أفراد العائلة أن يخمنوا ويحتاروا في أمره للحظات متباعدة، فيما ينتظرون أحدهم ريثما يحضر معطفه، أو حين يمضون عصر يوم شتوي على الأريكة حالمين في يقظتهم. ولم يبالِ أي منهم باستقصاء الحقيقة.

إلى يمينه، بعد الطرف الأيمن لطاولة الطعام، والكرسي المحاذي له، يظهر المدخل الذي كان عبارة عن ممرّ صغير يفضي إلى غرفة الجلوس، الباب الأمامي إلى اليمين، وباب خزانة المعاطف في الجهة البعيدة، وإلى اليسار باب العليّة غير المنجزة (والتي جعلها جورج غرفة السمكرة والكهرباء حينما بنى المنزل قبل خمسين عاماً، مع النيّة بتحويلها لاحقاً إلى غرفة عائلية واحدة وكبيرة). إلى يمينها مكتب ذو غطاء، حيث يحتفظ جورج بالفواتير والإيصالات والدفاتر غير المستعملة. كانت هناك لوحة زيتية أخرى معلّقة فوق المكتب، حيث تظهر فيها سفينة شراعية متعددة الصواري تبحر بعيداً من جلاوسشتر في طقس عاصف. كان مشهداً بالأخضر المعكّر، مع تدرجات الأزرق والرمادي المحتشدة حول خطوط السفينة التي تُرى من الخلف. أطراف الموجات مضاءة من داخلها بضوء لا يظهر مصدره. وإذا أمعنت النظر إلى الخطوط المستقيمة للصواري وحبال الأشرعة، لوقت كافٍ، في الضوء الشاحب لأول المساء، أو في يوم ماطر، فإن البحر يبدأ بالتحرّك متموجاً عند طرفَي ناظريك. يتوقف حين تنظر إليه مباشرة، ولا يلبث أن يتسلل إلى الحركة مجدداً ما إن تعيد نظرتك المطوّلة إلى السفينة.

إلى يمين جورج مباشرة، توجد الأريكة الزرقاء وطاولاتها الجانبية، حيث يجلس حفيده الآن، ناظراً إليه، وكتابه في حضنه. خلف الأريكة نافذة ناتئة كبيرة تُشرف على الحديقة الأمامية والشارع. لكن ستائر سميكة أبقتها زوجته مغلقة ليلاً ونهاراً، على اعتبار أنه عاد إلى البيت ليموت، حجبت المنظر. كانت الستائر سميكة وثقيلة مثل ستائر المسرح، وكان لونها حليبيًا وكانت مخطّطة بخطوط عريضة كستنائية داكنة، لدرجة أنها تبدو سوداء تقريباً. الأعمدة مزينة بعريشة مورقة تلتف حولها. وبين عصافير الدُّرّسة، تظهر أحياناً عصافير مغرّدة وفي مناقيرها قصاصات شرائط

ملونة، أو عشب، أو أوانٍ رخامية. بدا لجورج الناظر إلى الستائر، أن حفيده جالس أمام مسرح صغير محجوب، وأنه سيقوم في أي لحظة ليتنحى جانباً، وبذراع ممدودة إلى جانبه سيقدم عرضاً ما، عرض الدمى ربما.

لكن حفيده سأل مجدداً: جدي، هل أنت بخير؟

يا للصمت الرهيب!

عندما لم يعد قادراً على إدارة رأسه أكثر، كان عليه تخيّل بقية الغرفة خلفه. التلفزيون على منضدته الخاصة، والأريكة الصغيرة الحمراء التي تتسع لشخصين، وصورة زوجته المرسومة يدويًا حين كانت في السابعة عشرة من عمرها، في إطار طويل من خشب الورد. وساعة جدّه.

أدرك أن هذا كل شيء. الساعة توقفت. كل الساعات في الغرفة قد توقفت: الساعة المستديرة، وتلك التي على شكل عربة على رفّ الموقد، والتي على شكل آلة البانجو الموسيقية، وساعة فيينا التي لا تخطئ والمعلقة على الحائط، وأجراس سفينة تشيلسي على المكتب ذي الغطاء، وساعة الجد من ماركة ستيفنسن بطولها البالغ سبع أقدام وعلبتها من خشب الجوز. صنعت في نوتنغهام عام 1801، نافذة قرصها على شكل هلال، وطائرا "أبو الحناء" يلتقطان طرفي حبل الزينة المزهّر حول الأرقام الرومانية. عندما تخيّل ما بداخل الساعة، المعتم والجاف والأجوف، والرقّاص الساكن المرتخي، شعر بدواخل صدره، وانتابه خوف مفاجئ من أن أعضاءه هو أيضاً ربما تكون قد توقفت عن العمل.

حين كان أحفاده صغاراً، كانوا يسألونه إن كانوا يستطيعون الاختباء داخل الساعة. والآن ودّ لو يجمعهم ويفتح جسده ليخبئهم بين ضلوعه مع قلبه الذي بالكاد تُسمع دقّاته.

حينما أدرك أن السكون الذي يحيّره كان في الحقيقة نتيجة صمت ساعاته التي تُركت لتتوقف، فهم أنه سيموت في السرير حيث يستلقي.

قال لحفيده بصوت أشبه بنعيق الغراب: توقفت كل الساعات.

- قالت نانا إن ذلك سيجنّنك.

في الواقع، كانت زوجته تقول إن التكتكات الدائمة - ولنضع الدقات ذات الجرس الموسيقي جانباً - كانت تثير جنونها، وإنها ما كانت تحتمل السهر مع كل تلك القعقعة. وفي الواقع الفعلي، كانت زوجته ترتاح لدى سماعها تكتكات الساعات ودقّاتها. ولسنوات طويلة بعد وفاة زوجها، وفي البيت الصغير الذي اشترته في مجمّع للتقاعد بالمال الذي خبأه من أجلها في القبو وفي ست خزنات مصرفية موزعة على طول الشاطئ الشمالي، حافظت على أثمن اثنتي عشرة قطعة من مجموعته. وزّعتها في غرفة الجلوس بطريقة معينة كي تدقّ الساعات المضبوطة بدقّة، بعدما سعت إلى تنظيمها طوال أشهر، في ثانية واحدة موحّدة، فتكاد تشعر بتواجده في الغرفة، وتحس به، هو غير المرئي، وإنما المتواجد بين التكتكات. وعند منتصف الليل، عندما تستلقي وحدها على سريرها الذي تعلوه ظُلّة شفافة، وتدق الساعات كلها معاً معلنة انتصاف الليل، تكون متيقنة من أن زوجها الشبح لا شك في أنه ينتقل من آلة إلى أخرى وهو يتفحصها عبر نظارته المزدوجة، متأكداً من أن الساعات كلها تتناغم في الدقّة، وأنها مدوزنة جيداً.

لا شيء سيثير جنوني كهذا الصمت، قال جورج، انهض وعبّئها. وهكذا قام الشخص الفتي، الذي ما عاد جورج يذكر اسمه، وتنقل من ساعة إلى أخرى وهو يعبّئها واحدة واحدة.

فلتتنازل عن الدقات، قال الشخص الفتي، سيكون الصوت عالياً جداً. إذا دقّت كل تلك الآلات معاً، فستقتلنا نانا.

قال جورج:حسناً حسناً، وراح الدم في عروقه، والنَّفَس في صدره، يتدفقان بمزيد من السهولة لما سمع التّرس وطقّة الزنبرك وهو يُبرم، ثم الكورال المتصاعد من الساعات التي لم يسمعها تتكتك بقدر ما كانت تتنفّس وتتناقل بعض الطمأنينة لمجرد أن تشعر إحداها بتواجد الأخرى، مثل اجتماع الناس في عشاء دار العبادة أو خلال عرض صور في المكتبة المحلية.

إلى جانب تصليح الأواني وبيع الصابون، هناك بعضٌ مما كان يفعله هاورد، من

وقت إلى آخر، خلال جولاته، لكسب أموال إضافية أحياناً، وفي أحيان أخرى للفعل بذاته: يطلق النار على كلب مسعور، أو يساعد على ولادة طفل، أو يخمد ناراً، أو يقتلع ضرساً متعفناً، أو يقصّ شعر رجل، أو يبيع خمسة غالونات من الشراب الاسكتلندي منزليّ الصنع لمهرّب في آخر الغابة يدعى بوتس، أو يسحب فتاة صغيرة غريقة من الجدول.

الفتاة الغريقة ابنة أرملة تدعى لا روز. كانت تلعب عند طرف الجدول وانزلقت قدمها على حجر مبلول فوقعت على وجهها، وضربت رأسها، وأغمي عليها في الماء. جرفها التيار بعيداً، مسافة مئات الأقدام، ثم لفظها على هضبة رملية في منتصف الجدول. خلع هاورد حذاءه، وثنى ساقي بنطاله، وغطس من أجل إنقاذ الفتاة. حين انحنى لحملها، كان في بادئ الأمر كمن يستعد لرفع حَمَل شارد سيسنده إلى وركه... لكنه عندما لفّ ذراعيه حول الجسم الصغير واستشعر برودته، ورأى الشَّعر الطويل يسترسل في الماء، فكّر في والدة الفتاة الواقفة خلفه، فأدار وجه الفتاة نحو السماء، ورفعها ليحملها كما لو أنها نائمة وكأنه ينقلها من الجزء الخلفي من العربة إلى فراشها المحشو بالقش قرب الموقد بعد رحلة لزيارة الأقارب.

أما الرجل الذي قصّ له شعره فيُدعى ميليش. عمره تسعة عشر عاماً وسيتزوج بعد ساعة ونصف الساعة. أمه متوفاة، وشقيقاته وأشقاؤه أكبر منه بسنوات، وقد تزوجوا قبله وانتقلوا إلى كندا أو نيوهامبشر أو جنوباً إلى وونسوكيت. يحرث أبوه الأرض التي سيزرعها بالبطاطا، والممتدة على خمسة عشر هكتاراً، وكان ليسلخ رأس الفتى بدلاً من أن يقصّ شعره، لأن زواجه يعني أن اليدين الأخيرتين اللتين تساعدانه ستهجران المزرعة. استلّ هاورد، من عربته، مقصّاً ووعاءً قصديرياً متوسط الحجم. وضع الوعاء على رأس الفتى، وقصّ الشعر من حوله دائرياً. وعندما أنهى عمله، فكّ لفافة عن مرآة يدٍ وناول الفتى إياها. أدار الفتى رأسه يمنة ويسرة، ثم أعاد المرآة إلى هاورد، وقال: أعتقد أنّ قصّة شعري تبدو جيدة فعلاً يا سيد كروسبي.

ويدعى الرجل الذي اقتلع له ضرسه جيلبرت. كان جيلبرت ناسكاً يعيش في عمق الغابة على ضفة نهر البينوبسكوت. لم يبدُ أنه يقطن في أي ملجأ من أي نوع غير

الغابة نفسها، فيما خمّن بعض الرجال الذين يصطادون الغزلان والدببة وحيوانات الموظ في الغابة أنه ربما يعيش في حجرة منسيّة لصياد فِخاخ قديم. واعتقد آخرون أنه يبيت معلّقاً على شجرة. وطوال السنوات التي عُرف عنه أنه أمضاها في الغابة، لم يلمح الصيادون الشتويون مرة حتى رماد نار مطفأة أو أثر قدم واحدة. ما كان أحد ليتخيل كيف يبقى رجلٌ وحيد ومكشوف في الغابة على قيد الحياة، خلال فصل شتاء واحد، فكيف بعشرات الفصول؟ أما هاورد، وبدلاً من أن يحاول شرح وجود الناسك ببقايا سهرات النار وأكواخ صيادي الفِخاخ، فقد فضّل المساحة الفارغة التي كان الرجل يقطنها بالفعل. أحبّ أن يفكّر في ثنية ما في الغابة، في شقّ لا يشعر به سوى الناسك نفسه الذي ينزلق فيه، وهناك يتقبّله الجليد والثلج؛ بل الغابة المتجمدة بعينها، فلا يعود بحاجة إلى نار أو أغطية صوفية، بل ينجدل في الثلج، ويلتحف بالجليد، فتصبح أطرافه كالخشب البارد ودمه كالنسغ المتجمّد في جذوع الأشجار.

جيلبرت خريج باودوين كوليدج. وبحسب الروايات، كان يتبجّح بأنه رفيق الصفّ للأديب ناتانيال هاوثورن. وبالرغم من أنه لا بدّ من أن يكون قد بلغ المئة والعشرين من عمره كي تصحّ تلك الرواية، إلا أن أحداً لم يُبالِ بدحض المزاعم التي اعتقدوا أنها ممتعة. الناسك المحلي، الذي يرتدي جلود الحيوانات، ويتمتم بابتهالاته (وغالباً ليس باللاتينية)، وفي المواسم الأكثر دفئاً يجمع حشداً صغيراً وإنما توّاقاً من الذباب الطنّان باستمرار حول رأسه، فيحطّ على أنفه، ويمصّ الدّمع من زوايا عينيه... لقد استخسروا نزع السحر عن فكرة أن هذا الناسك كان يوماً ما نظيف الوجه، وتربطه بكاتب رواية ***رسالة سكارليت*** علاقة مُنشّاة. ويبدو أن اسم جيلبرت لم يكن اسمه الحقيقي، ولم يكن أحد يعرف متى وُلد، لذا تركوا القصّة عند هذا الحد.

أحبّ الناس التخمين بشأن جيلبرت الناسك، وسرد القصص عنه، خصوصاً حين كانوا يتحلقون حول مواقدهم الخشبية في ليالي الشتاء التي يعصف صقيعها في الخارج. ففكرة أنه الآن في مكان ما بين ثنايا تلك الرياح الشرسة كانت تمدّهم بإثارة مُطمئنة.

كان هاورد يجلب بعض الأغراض لجيلبرت الذي لم تكن احتياجاته من عالم البشر كثيرة: من إبر وخيطان، وخيط مضيص، وتبغ... مرة في السنة، في اليوم الأول لذوبان الجليد في البرك، أي في وقت ما من شهر أيار. إذ يقود هاورد عربته إلى كوخ الصيد التابع لنادي التخييم المريح، وهو بعيد أصلاً، ثم يحمل على ظهره الأغراض التي يعلم أن جيلبرت يحتاج إليها، ويسير في طريق مختصرة شقتها القبائل الهندية بمحاذاة النهر. في مكان ما على الطريق، يلتقي هاورد جيلبرت. يتبادل الرجلان تحية لا تزيد على هزة الرأس، ثم يشقان طريقهما عبر الأكمة نزولاً مع النهر، هاورد بجعبته الممتلئة، وجيلبرت مع حاشيته من الذباب وكيسه المصنوع من جلد الغزال. يجدان صخرة أو مرجاً من العشب الجاف ليجلسا، فيأخذ هاورد علبة تبغ من الجعبة التي أحضرها لجيلبرت ويعطي الناسك إياها. يقرّب جيلبرت العلبة المفتوحة من أنفه، ويتنشق الرائحة على مهل، متذوقاً الرطوبة الغنية الحلوة للتبغ الجديد. فحينما يحلّ موعد لقائه هاورد، يكون مخزونه قد نفد تماماً. تخيّل هاورد أن رائحة التبغ الجديد كانت تؤكد لجيلبرت أنه عاش سنة إضافية فعلاً، وتحمّل شتاء آخر في الغابة. وبعد أن يشمّ التبغ ويتأمل النهر للحظات، يمدّ جيلبرت يده إلى هاورد الذي يخرج غليوناً من جيب سترته ويعطي الناسك إياه. لم يكن هاورد مدخّناً، إلا أنه كان يحتفظ بالغليون لجلسة تدخين واحدة في تلك المناسبة السنوية. يحشو جيلبرت غليون هاورد بالتبغ، ثم يحشو غليونه (وهو غليون جميل منحوت من خشب محمرّ داكن، وتخيّل هاورد أنه كان، ذات مرة، يضطجع على قاعدة نحاسية فوق مكتب عميد جامعي). يدخن الرجلان معاً بصمت، فيما يراقبان تدفّق مياه النهر الربيعي. وفي أثناء تدخين جيلبرت، كان سرب الذباب يتفرّق مؤقتاً، إنما، على ما يبدو، بلا ضغينة أو عتب. عندما يحرق الغليونان كل التبغ، يدقّ كلّ منهما الرماد على الصخرة ويعيد الغليون إلى مكانه. يعود الذباب إلى مداره حول رأس الناسك، ويفتح الأخير كيس جلد الغزال مخرجاً منه منحوتتين خشبيتين، واحدة تشبه حيوان الموظ، والثانية تشبه قُندساً أو ربما يكون مرموطاً أو حتى خُلداً. كانت المنحوتات سيئة لدرجة أن هاورد لم يكن متأكداً من شيء سوى أن الأغراض التي يضعها الناسك على العشب بينهما تمثل حيوانات ما. بالقرب من المنحوتات، وضع جيلبرت فروة ثعلب رائعة المنظر، مع الرأس، تفوح منها رائحة لحم متعفن. كانت هناك لحظة رعب بالنسبة إلى

الذباب الذي ما كان يستطيع أن يقرر أيهما أكثر فساداً، الناسك أم الفروة. في النهاية، أعلن السرب ولاءه لمضيفه الحي الأكثر حدّة. وضع هاورد بدوره رزمة التموين على العشب، وجمع كلٌ من الرجلين أغراضه. لم يتبادلا في تلك الأثناء سوى كلمات قليلة خلال السنوات الأولى من ذلك الطقس الربيعي، وفقط من أجل تحسين طلبية جيلبرت. في إحدى السنوات قال: المزيد من الإبر. وفي سنة أخرى قال: لا مزيد من الشاي، قهوة الآن. وما إن تستقر اللائحة، لا يعاود الرجلان الكلام. وطوال السنوات السبع الماضية، لم ينبس أي منهما للآخر ببنت شفة.

لكن السنة الأخيرة التي التقى فيها هاورد جيلبرت شهدت كلاماً. كان خدّ الناسك متورماً ولامعاً مثل تفاحة ناضجة. حدّق جيلبرت إلى الأرض قليلاً ثم رفع كفّه إلى خدّه. حتى الذبابات جزعت من ألم راعيها وراحت تطنّ حوله بشيء من الحذر. تطاول هاورد برأسه في صيغة سؤال صامت.

همس جيلبرت: الضرس.

لم يكن هاورد ليتخيل أن تلك القشرة البشرية المسماة رجلاً، ذلك المنعزل الذي لم يبدُ أكثر من لفافة شعر وخِرق، لا يزال يحتفظ في جمجمته بضرس يؤلمه. ومع ذلك، تلك كانت الحقيقة. اقترب جيلبرت وفتح فمه، فيما زمّ هاورد عينيه ناظراً إلى داخل الفم باهتمام، ورأى في ذلك الكهف البنفسجي الرطب ضرساً أسود عالقاً في آخر اللثة المفرغة من حمولتها، وسط عرش من اللحم المتورم الأحمر. التقطت نسمة نَفَس الناسك، وشهق هاورد الذي فكّر في مسالخ وحيوانات أليفة نافقة في مداخل مسقوفة لمبانٍ عتيقة.

الضرس، قال الناسك مجدداً وأشار إلى جوف فمه.

آه، نعم، شيء فظيع، قال هاورد، وابتسم متعاطفاً.

قال الناسك: لا! الضرس!وأشار مجدّداً بإصرار.

أدرك هاورد أن المصاب المسكين يريد منه أن يخلع له الضرس.

آه، لا، لا! ليس عندي أدنى فكرة...

قاطعه جيلبرت: لا! الضرس! صوته أزيز أعلى من السابق.

لكنني لا أعرف... وقاطعه الناسك مرة أخرى، دافعاً إياه باتجاه المكان الذي ركن فيه عربته، على بعد ثلاثة أميال من مكان وقوفهما قرب كوخ نادي التخييم المريح.

عاد هاورد بعد ساعتين ونصف الساعة، ومعه زجاجة شراب اسكتلندي مصنوع من الذرة جلبها من عند بوتس، وكفاشة ذات مقبض طويل كان يستخدمها لدى تلحيم قطع صغيرة من القصدير على فجوات الأواني المنزلية. في البداية، رفض جيلبرت احتساء الشراب، لكن هاورد، عندما التقط الضرس، أغمي على العجوز. رشّ هاورد وجه جيلبرت بماء النهر البارد، فأفاق الناسك، وتحرك باتجاه الشراب الذي شربه دفعة واحدة، ثم أغمي عليه مجدداً من أثر الكحول على الضرس. رشّة ماء أخرى أنعشت جيلبرت، وجلس الرجلان لبعض الوقت وهما يراقبان عصفوري دوريّ يطاردان غراباً فوق شجر التنوب على الضفة الأخرى من النهر.

كان النهر مرتفعاً وضاجاً، بعد ذوبان مبكر وسريع للجليد، وبدا وكأن الأصوات تختلط بالماء، وكأن عرقاً من البشر يقطن بين ثنايا ذاك التدفّق. لما بدأ جيلبرت يلقي قصائد فيرجيل، أدخل هاورد الكفاشة في فم الناسك، وأحكم فكّيها على الضرس النتن، وجذب بكل قوته. وعندما لم يتحرك الضرس، أفلته هاورد. ترنّح جيلبرت للحظة، ثم سقط مغشياً عليه. كان هذه المرة متمدّداً على ظهره، والذباب يلحق به بإخلاص، من وضعية الوقوف إلى وضعية الاستلقاء. في البداية، كان هاورد مقتنعاً بأن مريضه قد مات، لكن صفرة رطبة من أنف الناسك المحفوف بالذباب دلّت على أنه لا يزال يُحتسَب من بين الأحياء.

فتح العجوز فمه على وسعه، وأمسك هاورد الضرس بالكفاشة. وحين نجح أخيراً في اقتلاع الضرس، كان وجه جيلبرت ولحيته مضمخين بالدم. رشّة أخرى من مياه النهار أحيت المريض. حين رأى جيلبرت هاورد واقفاً أمامه، والكفاشة المدمّاة في إحدى يديه، والضرس ذا الجذر استثنائي الطول في اليد الأخرى، أغمي عليه مرة أخيرة.

بعد أسبوعين، استيقظ هاورد على نباح الكلب "بادي"، فنهض من فراشه واتجه إلى باب المطبخ ليرى إن كان في الفناء دبّ أو بقرة شاردة. كانت هناك، على عتبة الباب، رزمة ملفوفة بجلد لزج تفوح منه رائحة كريهة، ومربوطة بخيط مضيص تعرّفه هاورد لأنه من النوع الذي يبيعه. تحت ضوء القمر، فك الرباط وفرّد الجلد؛ فعثر على مخمل أحمر تحت اللفافة الجلدية. فتح هاورد المخمل، ووجده جديداً كاليوم الذي طُبع فيه، والصفحات غير مقصوصة: نسخة من رواية ***رسالة سكارليت***. فتح هاورد الرواية على صفحة العنوان حيث كُتب بخط اليد: إلى "هيك" جيلبرت: هذا من أجل الذكريات المُتقاسمة بين شابّين في ريعان رحلتيهما. المخلص والأخ الصديق، "ناثل هاوثورن، 1852".

عندما ذاب الجليد في العام التالي، أخرج هاورد غليونه من أحد أدراج العربة، وفركه على فخذ بنطاله، ثمّ نفخ في فتحته ودسّه في جيب سترته. وضّب رزمة جيلبرت، وسار في الطريق المختصرة الهندية بمحاذاة النهر. لا أثر للناسك. عاود هاورد تلك المسيرة يومياً طوال أسبوع، لكن جيلبرت لم يظهر قطّ. في اليوم السابع، انحرف هاورد عن الطريق المعتادة وجلس قرب النهر ليدخن غليوناً محشواً بالتبغ كان قد وضّبه للناسك. وبينما كان يدخّن، أخذ يستمع إلى أصوات الأمواج؛ كانت تتمتم شيئاً عن مكان ما في عمق الغابة، حيث تفترش عظام سريراً من الطحالب، ومن فوقها كتيبة الذباب التي كانت في حداد والتي ظلت تعاند طوال الخريف الماضي، حتى جاء الصقيع، فاستسلمت أيضاً.

هذا كتاب. إنه كتاب وجدته في علبة. وجدت العلبة في العليّة. كانت العلبة في العليّة، تحت الإفريز. العليّة حارّة وساكنة. الهواء راكد ومغبر. الغبار مصدره صور قديمة وكتب. الغبار في الهواء من الكتاب الذي وجدته. تنشقت الكتاب قبل أن أراه. تذوقت الكتاب قبل أن أقرأه. للكتاب غلاف أحمر، وصفحاته كبيرة. الصفحات من ورق سميك بلون اللوز المسلوق. الكتاب مملوء بالكتابة. الكتابة بحبر أزرق. الحبر كثيف ويتجمع في بعض الزوايا كما يتجمع الطلاء على قماشة الرسم. لم يمتص الورق الحبر. كان لا بد للحبر من أن يجف قبل إغلاق الكتاب أو طيّ صفحة فيه. الحبر أزرق داكن لدرجة أنه يبدو أسود. لا ترى الأزرق إلا حيث تتأنق الكتابة عند

ذنابة الحروف، أو في الخطوط التي يخف عنها ضغط اليد. الخطّ يشبه خطّك. كأنك أنت الذي كتبت الكتاب. هو قاموس أو موسوعة من نوع ما. الكتاب مليء بتقارير من خلفيات الأحداث، ومشبع بضوء ضعيف بارد من الشمال، ومبانٍ صغيرة من مواسم صيفية قصيرة. دعني أقرأ لك مثلاً. هل أنت مرتاح؟ هل تريد خفض السرير قليلاً؟ هل ترغب في شرب الماء. لا، الجميع نائمون. هل أقرأ لك مثلاً؟ ألا تذكر أنك كتبت هذا؟ الخط يشبه كثيراً خط يدك. يشبه خطّي أنا أيضاً، خصوصاً حرف الفاء الذي يشبه حرف السين الممدود، والخلط بين الحروف الموصولة والمقطوعة. لماذا لا أبدأ من البداية، من الفقرة الأولى؟ لا، أنا تشارلي. سام في بيت أمّنا يأخذ قسطاً من النوم. لا، لا أعتقد أنه لا يزال يدخن، لا. ليس منذ أن أصيب بذات الرئة في الشتاء الماضي. نعم، بالطبع، لدينا العائلة دائماً، مهما حصل. أول فقرة هي:

كوزموس بوريالس: جلد المساء الرقيق، والغيوم والجبل، على البحيرة الساكنة. جسم الماء من تحت، يئحد بالقصب والطمي والسلمون المرقط (مختوم بجلد النهار وجلد الليل وجفون الجليد)، السلمون الذي نخرجه بخيوط حريرية معلّقة بنتوءات الفرو أو الريش الزاهي. جلد كالزجاج، كالسائل، كالجلد، خدشت كلماتنا السطح الأملس (الذي يعكس القمر الطالع، والنجوم الدوّارة، والوطاويط الطيّارة سرًا)، وما كان علينا سوى أن نهمس عبر الصحن العريض. ذكر البط أينع جافاً بين النجوم، يتوهج بياضاً، خارج السرب الذي طفا من القذارة في قعر البحيرة وانفتح على جلد الماء. همسنا عبر المجرّات، من يحتاج إلى المريخ؟

كيف يشعر من يمتلئ بالبرق؟ ماذا يعني أن يشقّك البرق من الداخل؟ كان هاورد يتخيل أنه مزق نوبة الغضب. ومع أنه لم يتذكرها قطّ، فقد كان، خلال النوبات، يشعر بدمه يغلي ومخّه يُقلى في وعاء جمجمته، بالرغم من موجة البرد التي تسبقها والرجفة التي تليها. كأنما هنالك بابٌ سريٌّ يفتح من تلقاء نفسه على عاصفة كهربائية تغزل في مكان ما على حافة المجموعة الشمسية. تخيّل الباب؛ إنه غير مرئي عندما يكون مغلقاً، ومتخفٍّ بألوان العالم (كان في الخارج، تحرّك). حين يُفتَح، يظهر أنه مصنوع من خشب سنديان سميك، وينفتح باتجاه الخارج. له مقبض خشبي لأن الكهرباء في المقلب الآخر تتفجر من مقبض معدني. لطالما تساءل هاورد إن كان

هناك مقبضٌ في الجهة الخارجية من الباب. لم يرَ الجهة الخارجية من الباب في ذهنه، لأنه يكون إما مغلقاً مخفياً، أو مفتوحاً على مصراعيه حيث إن واجهته - الجهة المطلية بالنور والظل، بالعشب والماء - تصبح في الجهة المعاكسة. الطريق إلى الباب محفوفة بظلمة لا حدّ لها. سواد الكون يحيط بعجلة الضوء. إبر الكهرباء تخرج كالشوك من دوامة الشرارات. معظم البرق وَمَض واختفى في لحظة. لكن، عندما تجد إحدى الشحنات سبيلها عبر الباب وإلى هاورد، فإنها تلتصق بسرعة، وتعلق بشيء في داخله، وتعلق وتعلق. في الساعات الباردة المنسوفة الخدرة، التي تلي النوبة، يسيطر التشوّش. يطقطق مخّ هاورد المتقرّح، ويقدح شرارات زرقاء خلف عينيه، يجلس مرتخياً، رخو الفكّين، وملفوفاً بغطاء، وتحيّره حمية البرق بداخله. كأنما ودّ كائن حسن النيّة أن يقدم له هدية مميزة فلقّمه الشحنة الكهربائية بالملعقة من خلف الباب.

قبل موته بستٍّ وتسعين ساعة، قال جورج إنه يريد حلاقة ذقنه. كان صعب الإرضاء في ما يتعلق بأناقته. خاط ستراته وقمصانه على أفضل طراز، ومن أجود أنواع القماش وعلى آخر صيحة. تنبت الشعيرات على وجهه في رقعات كتلك التي على وجه أجرب. ما كان ليطلق لحية أو شارباً حتى لو أراد ذلك. وهذا ما زاد من أهمية الحلاقة بالنسبة إليه. إذا مرّ يوم من دونها، فإن وجهه الطفولي المرقّط بمتفرقات شعره يحوّله إلى عاجز أو طفل كبير لا يستطيع تلبية حاجاته.

يا الله! متى كانت آخر مرة حلقت فيها ذقني؟ هل أحظى بحلاقة؟ نظر حول الغرفة إلى عائلته: إلى زوجته، وابنتيه كلير وبيتسي، وثلّة من الأحفاد الناضجين الآن، والشقيقة الوحيدة المتبقية لديه؛ مارجوري التي تزفر الهواء وتحيط برقبتها ياقة عريضة بسبب إصابة في الرقبة. الياقة ملبّسة بكتّان من لون الجلد، يتّسق تماماً مع ملابسها. ومع أنها تعاني الربو المزمن، كانت تدخن السجائر النسائية الرفيعة على الشرفة الخلفية، حيث تنفض الرماد بإبهامها، وذراعاها مشبكوتان على صدرها، ونَفَسها يُخرِج نفثاتٍ صافرةً من الدخان الأزرق. تحتفظ بعلبة السجائر في جراب قماشي يقفل بمشبك مذهّب. الجراب مطرّز بالخرز الذي يبدو كمياه النافورة. سمعت شقيقها بعدما قذفت سيجارتها في أكمة خلنجان وعادت إلى الغرفة. أطبق

باب الشبك خلفها محدثاً جلبة مزعجة. (في صباح ذهابه إلى المستشفى، حين كان يشعر بأنه في حال أسوأ من العادة، كان مخطط جورج لذلك اليوم أن يتوجه إلى متجر الخرضوات لشراء ذراع هيدروليكية جديدة للباب، فالذراع القديمة ما عادت صالحة).

لماذا لم يقم أحد بحلاقة ذقن جورجي؟ من سيحلق لجورجي؟ هذا فظيع؟ منظره رهيب! يا الله! منظره **رهيب!**

قال أحد أحفاده، ساموبل: عمتي مارجي، أنت على حق، علينا أن نجعل هذا العجوز أنيقاً. أنا سأحلق له. اتلُ صلواتك يا جدي، ولا تتحرك. أراد أن يخنق عمّته الكبرى حتى الموت ويدخّن كل سجائرها.

خرج سام وعاد إلى الغرفة ومعه وعاء صغير مملوء بالمياه الساخنة، ومنشفة دافئة، وصابون حلاقة، وآلة حلاقة بلاستيكية رخيصة من النوع الذي يرمى بعد بضعة استعمالات وقد وجدتها له جدّته في سلّة تحت المغسلة فيها عدّة حلاقة مستعملة وكانت عليها قشرة صابون جاف. لم يجد آلة الحلاقة الكهربائية، وجورج لا يتذكر أين وضعها. ولم يتحلَّ أيٌ من الحاضرين بسرعة البديهة ليخرج إلى المتجر ويشتري آلة جديدة. كفكف سام وجه جدّه بالمنشفة الرطبة الدافئة وتمنى لو أنه يدخّن سيجارة الآن ولا يحلق لجدّه أمام هذا الجمهور الهستيري. كان رأس جورج يهتز قليلاً من جراء مرض الباركنسون، لكنّ الهزة توقفت حين أمسك سام بوجه جدّه. وضع سام المنشفة جانباً ورجّ قنينة صابون الحلاقة ثم ضغط على الزر العلوي. كانت القنينة قديمة، نُبشت مع الشفرة من بطن خزانة تحت المغسلة. إذ كان جورج يستخدم آلة الحلاقة الكهربائية، ولم يكن بحاجة إلى صابون الحلاقة. كانت القنينة صدئة ومن ماركة ما عادت تُصنّع. حشرجت الفتحة عند الزر العلوي ثم عطست سائلاً أبيض في يد سام.

قال سام: لا تهتمي بالخشب يا أمي.

قال جورج: أبي آتٍ إلى البيت ومعه الحمولة.

رجّ سام العبوة مجدداً، وهذه المرة انسكب منها ما هو أقرب إلى صابون الحلاقة الفعلي. فرك به سام وجه جورج ورقبته. بدأ بخدّي جورج، ليحلق باتجاه الشعر فقط؛ لقد انتهى من الخدّين بسلام. الشفة العليا كانت أصعب، والسفلى أصعب بكثير.

قالت مارجوري: لا تجرحه.

كشّرت ابنتا جورج؛ ثمّ قالت بيتسي، والدة سام: انتبه، وكشفت عن أسنانها لسام، معبّرة عن الخطر وعن قلقها ودعمها.

قالت زوجة جورج، جدّة سام: لا تنس ذقنه، هو دائماً ينسى ذقنه.

قال سام: سيجارة.

قال جورج: ماذا؟

قال سام: لا شيء. اثبت يا سيد كريسج.

مثل الأغنية: سيد كريسج عندي شكوى، لقد بعتني طلاء أحمر رخيصاً

ثم جاء دور اللُّغد، كيس الجلد الرخو بين ذقن جورج ورقبته، ضربات قصيرة وخفيفة. شدّ سام الجلد في اتجاهات مختلفة وكشط بحذر جلد جورج الطري. استنزف كل هذا الجهد سام، وجعله اشتهاؤه النيكوتين يحلق بطريقة عشوائية. حينما ظنّ أنه فرغ من مهمته ومسح بقايا الصابون عن وجه جورج، اكتشف أنه أهمل رقعة شعر في ثنية جلد عند الرقبة. وبدلاً من أن يضع المزيد من الماء الساخن والصابون، قال سام: انتظر، نسيت رقعة، وشدّ ثنية الجلد بإبهامه ومرّر الشفرة على المساحة المنسيّة. تعثّرت الشفرة ببعض الجلد وقضته فانجرح.

اللعنة، قال سام.

قال جورج: ماذا؟

دم! قالت مارجوري.

لم يكن الجرح عميقاً، لكنه نزف كثيراً، مرسلاً جدولاً أحمر صغيراً على عنق جورج

حيث توزع الدم في قنوات وبلغ التجاعيد والثنيات، ولطخ سترته البيضاء، الأمر الذي عنى أنه يجب تبديل الثياب المبقعة بالدم وإلباس جورج ثياباً نظيفة، وهي عملية أصعب من الحركات البسيطة المعروفة لأنها تتضمن قيام النساء والأحفاد بدحرجة الجسد الأبيض العاري العاجز من جنب إلى آخر. يجب عليه أن يرافق مارجوري إلى خارج الغرفة حين يتم ذلك.

عندما رأت كتفيه وصدره العاري قالت: هذا فظيع! فليفعل أحدكم شيئاً! وتأوهت واغرورقت عيناها بالدموع.

لم يشعر جورج بشيء. ما إن أوقِف النزيف، حتى وضعت ضمادة صغيرة على جرحه، وارتدى ثياباً نظيفة، ورفع ظهره قليلاً فوق السرير، ثم عادت مارجوري إلى الغرفة ومعها بقية العائلة المرتبكة. مرّر سام مرآة إلى جورج الذي بدا مندهشاً من انعكاس صورته. وكأنه بعد عمر كامل من رؤيته نفسه على صفحة المرآة وعلى زجاج النوافذ والمعادن والماء، الآن، في نهاية المطاف، وفجأة، يظهر مكانه رجل غريب وقح وقليل الصبر، شخص يتلهف على الظهور في الصورة، مع أنه لم يكن يفترض أن يظهر إلا بعد خروج جورج.

سرى في الغرفة ما يشبه الإنذار الخفي، وسارع سام إلى القول: إذاً، ما رأيك؟ نظر إليه جورج بحيرة. قال سام: بشأن الحلاقة. فنظر جورج إلى حفيده، تائهاً. انحنى سام قليلاً لينظر إلى عيني جدّه عن قرب، قائلاً بصوت منخفض: ما رأيك بالحلاقة؟

قال جورج: آه! تقول الحلاقة! جيدة جداً جداً. لقد عدتُ وسيماً.

قال سام مردداً القصيدة الشهيرة: ***مثل ليروي الصغير، صبي الكابينة.***

!وأكمل جورج: آه! كان فتى صغيراً حذراً

ترامت الطريق الوعرة بين المنحدرين، ومالت الأشجار من الجانبين صوب الطريق حتى لامست أغصانها السفلى عشب الأرض. انخفضت الشمس وتألقت قمم الشجر، والتمع العشب الطويل، بينهما ضُمّة ظلال تجمعت، وسكنت الأغصان السفلى القريبة من الأرض. قاد هاورد عربته على الطريق، واستشعر أن مروره يجعل الظلال تتسرب

من بين أشجار الغابة، نزولاً على المنحدر، لتخرج من فوق التراب. ومن خلفه أيضاً، تخرج الحيوانات لتفحص العشب عند الأطراف، وثعلب أحمر يبدو وكأنه ينتعل جزمات سوداء يندفع كالسهم عبر الطريق المضاءة، من العتمة إلى العتمة. كان هذا الجزء هو المفضل من أوقات العصر بالنسبة إلى هاورد، حين تختلط ثنايا الليل بعصبة النهار. قاوم رغبته في إيقاف العربة، وإعطاء الأمير إدوارد تفاحة ثم الزحف إلى الظلال من أجل جلسة هادئة تجعله جزءاً من باكورة الليل. قاوم رغبته في إيقاف العربة والبقاء على مسطبته الخشبية لمشاهدة الظلال تقترب، وتتجمع في بركة حول عجلات العربة وحوافر الأمير إدوارد (البغل)، لتصل أخيراً إلى حذاء هاورد وكاحليه، حتى يغمر طوفان الليل البغل والعربة والرجل. فالأسرار تتكوم في الظلال عند صف الأشجار التي يصدر عنها حفيف فيما هي تنتظر مروره، وتجعل الشعر على ذراعيه وخلف رقبته ينتصب، وجلدة رأسه تنكمش حينما يشعر بفيضانها غير المرئي. الطريق من حوله تصبح كلها منزوعة السحر إذا أولاها انتباهه، ومترامية فقط إلى ما بعد ناظريه. الجوهر الحقيقي، الوصفة السرية للغابة والنور والعتمة أكثر رهافة ودقّة من أن تُراقَب بعيني الفظّة؛ جيب الماء والأعصاب، المعجزة بذاتها، الرقّة بذاتها: قابضة الضوء. لكن القصة ليست في الغابة والضوء والعتمة، بل في شيء آخر تنثره نظرتي الخشنة ونيّتي البلهاء. ربما يذوي لحاف الأوراق والنور والظلال والنسيم الكدر، فأحظى بلمحة عمّا هو متواجد في الجهة الثانية، وقد تتراخى القطبة من تلقاء نفسها أو يُعمل على إرخائها. لعل الحائك قد صنع عقدة من أوراق شجرة القيقب الحلو على جانب الطريق. وهذه العقدة، مهما كان خيطها - النور، الجاذبية، عتمة النجوم - فقد جعلتها الريح رخوة في قلق البراعم البيضاء. وربما هناك ثقب بعرض إصبع كنت محظوظاً كفاية لأراه في الأوراق البزّاقة من عربة الأدراج هذه، وكنت رشيقاً كفاية لأقشر الجذع الفضي، وشجاعاً كفاية لأدس إصبعي في المزق، وهذا يضفي على اللمسة البسيطة مقداراً من الهدوء والطمأنينة.

على هذه الشاكلة كانت أحلام هاورد في اليقظة، فيما الأمير إدوارد يجر العربة بيقين حيواني على الطريق الترابية المظللة. وكان يسقط في ما يشبه غيبوبة الصحو؛ وفيها يصبح عقله كعقل النائم، فيما أحلامه تؤلّفها عيناه المفتوحتان.

كريبوسكول بوريالس: 1) جذوع الأشجار تلمع فضيةً وبيضاء في الغسق. جذوع الأشجار تقشر مثل الورق النفيس لمخطوطة. 2) اليراعات ترسل ضوءها المتقطع من داخل العشب الكثيف ومن هالات السياجات. 3) المسافات بين الأشجار تشبه الفحم المتوهج. 4) الثعالب تلزم الظل. البوم ينظر إلى الأسفل من حيث يقف على الأغصان. الفئران مجموعات نشيطة.

ساعة أخرى مذهلة كان للمؤلف متعة سماعها هي *كليبسيدرا* التي أهداها ملك الفرس إلى شارلومان عام 807.

سعى الإنسان القديم، بطرائق عديدة، إلى التقاط الوقت بشكل أكثر دقة من ظلال عربة أبولو على أسطوانة حديدية مرقمة (إذ ماذا يفعل بعد أن تغرق الشمس خلف الجبال الغربية؟)، ومن حرق الزيت في مصباح زجاجي فيه علامات متباعدة بشكل معين حيث تُدرك الساعات، بشكل أوّلي، من خلال الزيت المتلاشي. سمِعَت النَّفس المتعقّلة الحساسة، التي ربما كانت في أحد الأيام ترتاح على طرف جدول يبقبق، في نصف حلم ونصف يقظة، وهي الحالة التي يبدو أن معظم الناس يصبحون فيها أكثر جهوزية لإدراك البكرات والرافعات التي تُعلي الغيوم، سمعت الصياح السماوي الذي يدفع الرياح، والتروس والعجلات التي تدور عليها الأرض. سمِعَت النَّفس هذه انتظاماً في الأغنية الفضية يترنّم بها الماء فوق الحصى، تلك النَّفس مجهولة بالنسبة إلينا. إذاً، فلنلاحظ، أنه يكفي أن نغريها كي تخرج من وفرة الماضي، بل لعلنا نرفدها بنعل سميك ويد ثابتة، بقلب مفتوح على الطبيعة ورأس متفانٍ في سبيل تقدّم البشر، ولنشاهد بإعجاب فيما تقلّب الآلات وتعبث بها مثابرةً، إلى أن تتوصل إلى آلة تحدد الوقت بمساعدة الانسياب الثابت للمياه في أحشائها. فلنسمّها: "كتسيبيوسالإسكندرية"، ولنعطها الفضل في تصميم محرّك هو سلف المحرّك الذي أعطاه العرب إلى شارل العظيم لتتقاطر فيه الأعوام السبعة الأخيرة من عمره. في البداية، جرت المياه هزيلة من خزّان إلى وعاء مُتلقٍّ. في هذا الوعاء، جسم طافٍ بقضيب عمودي، وعلى قمّة القضيب يجثم مجسّم (يمكننا تخيّلة بعمامة ورداء فضفاض ولحية سوداء كثّة وعينين سوداوين شرستين). يحمل هذا المجسم مؤشراً (مجدداً، قد نتخيله حربة أو رمحاً يسددها المحارب إلى خصم وهمي).

يعلو المجسّم فيما تملأ المياه الوعاء الذي وضع فيه. يرتفع المؤشر الذي يحمله على المساحة المقسّمة بأربع وعشرين علامة، والتي تشير إلى ساعات اليوم الأربع والعشرين. حينما يرتفع المجسّم إلى العلامة الرابعة والعشرين، فإن المياه في الوعاء الذي يطفو فيه تبلغ مثعباً. يفرغ المثعب الوعاء من مائه، فيهبط المجسّم مجدداً إلى مستوى الساعة الأولى، أي منتصف الليل.

لم يكن في الساعة التي أعطيت لشارلومان مجسّمٌ واحدٌ من هذا النوع، بل قرص فيه 12 باباً. عند الساعة المناسبة، يفتح الباب المناسب ويتساقط منه العدد المناسب من الكريات الذهبية الصغيرة، والتي كانت تقع الواحدة تلو الأخرى على طبل نحاسي شُدّ عليه مربّع من جلد الماعز. فلما تحلّ ساعة منتصف الليل، وتدقّ الكريات الاثنتا عشرة دقّاتها، تخرج مجسّمات مصغرة لاثني عشر فارساً يمتطون خيولهم في الاتجاهات كافة ويغلقون الأبواب الاثني عشر.

من كتاب **"الساعاتي العقلاني"**

للكاهن كينر دافنبورت، 1783

عانى جورج التجفاف قبل وفاته بستٍّ وتسعين ساعة. جلست ابنته الصغرى، بيتسي، قرب سريره محاولةً أن تسقيه ماء. كان المستشفى قد زوّدهم بعشرات الإسفنجات الزهرية الصغيرة، وكل واحدة موضبة بشكل مستقل ومشبوكة بعود. تُغطّس الإسفنجات في الماء الذي يمتصه المرضى غير القادرين على الشرب من الكوب. فكّرت بيتسي في أن أباها يبدو سخيفاً، وكأنه طفل وفي فمه مصّاصة سكّرية. حاولت أن تجعله يشرب من الكوب مباشرة.

لا بد من أنك عطشان. ألا تفضل رشفة كاملة بدلاً من مصّ تلك الإسفنجة الكريهة؟ لم تستطع أن تمحو من ذهنها صورة أبيها وهو يمصّ إسفنجة المطبخ المجلوبة من تحت المغسلة.

قال جورج: آه! سيكون ذلك رائعاً. يا الله كم أنا عطشان! وحينما رفعت الكوب إلى شفتيه وأمالته قليلاً، نظر إليها وسالت المياه على ذقنه. ولماً بلّلت له إسفنجة

ووضعتها في فمه، كاد أن يبتلعها، مع عودها. سحبت الإسفنجة من فمه وكانت ممتلئة بسائل مخاطي أبيض.

كان ذلك جيداً، قال لها: كنت عطشان.

كان يحتضر بسبب فشل كلوي. وفاته الفعلية كان سيسببها تسممه بحمض الأوريك. كل الطعام والماء الذي يتمكن من استهلاكه لا يغادر جسمه.

قالت بيتسي لأختها وأمها وولديها: يبدو عطشان جداً. إنه يحتاج إلى الماء.

قال ابنها سام: العطش أقل مصائبه الآن. على كل حال، تجاوز الأمر العطش، فهو سيموت.

(في الربيع الذي تلا موته ودفنه في المقبرة المحلية، زرعت بيتسي إبرة الراعيالحمراء أمام شاهدته السوداء الملفعة، حيث حُفر تاريخ غير صحيح لميلاد زوجته. قالت زوجته: يمكنكم تصحيح التاريخ لاحقاً، حين أرفس الدلو وأرحل بدوري، فتضيفون ذلك التاريخ الثاني. اعتنت بيتسي بالنباتات حتى حلول الخريف. كل يوم، بعد انتهاء دوام العمل، كانت تنتعل حذاء رياضياً وتسير مسافة ميلين من بيتها إلى المقبرة لتتحدث إلى والدها وتسقي الزهور. هناك صنبور ماء ودلو حليب فارغ زودهم به الشخص الذي يُعنى بالمقبرة. كانت تملأ الدلو بالماء وتسكبه أسفل سيقان النباتات خمس مرات، حتى ترتوي التربة من تحتها على عمق ثلاثة إنشات. جداول فضية تنساب من القبر عبر العشب الأخضر. ولو لم تكن قطعة الأرض على سفح هضبة حيث إنّ المياه تنساب بسرعة في منحدرها، لكانت الزهور قد غرقت خلال أسبوع).

تمبتس بوريالس: 1) تحوّلت السماء إلى اللون الفضي، وصارت البحيرة فضية من فضّة السماء. بدت كبركة من الزئبق. هبت الريح وأظهرت الأشجار خلفيات أوراقها الخضراء الفضيّة. تبدلت السماء من الفضي إلى الأخضر. قصدنا المرفأ حيث كانت قواربنا مربوطة من أنوفها إلى عوارض الألمنيوم. خشب الرصيف مبيّض كما لو أنه فضيّ اللون. ركعنا عند حافة الرصيف، وملنا بجذوعنا فوق الماء، حتى اختفت

السماء الفضية، ورأينا عيدان طحالب وفروخ سمك تسبح في خطوط متعرجة. لم نستطع رؤيتها، لكننا عرفنا أنه الترويت، سمك الجدول ذو البطن الفضي، الذي هرب من أمامنا مبتعداً بضع أقدام متوقفاً عند النقطة حيث يبدأ جلد السماء ثانية، بعد أطراف القوارب. كأن الترويت خفيّ في الماء، فظهره أخضر كالطحالب والأعشاب المائية الخضراء المسودّة، إلى أن ينقلب ويخترق جلد الماء ليأكل الحشرات، عندها تظهر بطون السمك الفضية المخضرّة. 2) مشّط الهواء فروات الأشجار حول البحيرة كالإشاعة، وكمدمة العجائز الذين يتمتمون شيئاً عن العاصفة خلف الجبل. العاصفة جاءت من خلف الجبل لتلفّ القمّة. زحف البرق نزولاً على سفح الجبل وشرب من الماء، لَعق المياه الضحلة بألسنة كهربائية، صادماً الضفادع ذات العيون البراقة، والترويت الصغير، وفروخ السمك.

غطّت عاصفة ربيعية متأخرة آخر النرجس وأول الزنبق بثلج كالقشدة، ذاب عندما ظهرت الشمس مجدّداً. بدا للثلج مفاعيل منشّطة على الأزهار. شربت جذورها الذوبان البارد واستقامت سيقانها من المشروب المثلج، وأعفيت وريقاتها الرقيقة المعافاة من المعطف الهش لصقيع حقيقي. جاء العصر دافئاً. ومع الدفء ظهر أول النّحل، واستقرت كل نحلة صغيرة في كوب أصفر ترضع الرحيق كحديثي الولادة. أوقف هاورد، الأمير إدوارد، بالرغم من أنه كان قد تأخر على جولاته اللاحقة. أعطى البغل جزرة، وخطا في الحقل المليء بالأزهار والنحل الذي لم يبدُ ممانعاً تواجده. بل بدا، في الواقع، وفي خضم حماسته الربيعية غير واعٍ لحضوره على الإطلاق. أغمض هاورد عينيه وأخذ نفَساً عميقاً. شمّ رائحة الماء البارد والأخضر البارد الجسور، رائحة تلك الأزهار المبكرة مثل الماء البارد. لم يكن شذاها كالعطر الصيفي الساكن، بل هو الرائحة المعدنية للأخضر البارد النيء. قرفص لينظر إلى نرجسة عن قرب. كان تاجها مسدّس الوريقات ومفتوحاً على وسعه؛ كمجسّم مصغّر للشمس الساطعة، وقد انسلّت نحلة إلى داخل الكوب تدلّك وسطه. مال هاورد نحوها، مقترباً إلى أقصى ما تخوّله جرأته (تخيّلَ أنه تنشّق النحلة المسكينة فعلقت داخل أنفه، وقرصته، وأن ذلك آلمه فأخرجها بسرعة وألقاها ميتة على ظهرها فوق العشب الأخضر) وتنشّق مرة أخرى. حلاوة خفيفة اختلطت بالبرودة المعدنية التي لم يعد

يلتقطها حينما أخذ نفساً أعمق ليشمّها أكثر.

كان الحقل مهجوراً. وفي آخره ظهرت أطلال بيت عتيق، تحول منذ زمن إلى خربة. لا بد من أن هذه الأزهار هي الجيل الأخير من النباتات التي تورق على مدار العام. لا بد من أن الأزهار المزروعة سابقاً قد زرعتها امرأة كانت تعيش في تلك الخربة حين كانت بيتاً غير مطلي بعد، تقطن فيه مع زوجها الجديّ المدخّن، وربما كانت لديهما ابنتان صامتتان جدّيتان. ولعل الأزهار شابهت فعل المقاومة لكل شيء خام وعارٍ من حولها، البيت الخام الواقف على أرض خام كضرب من الجنون المطلق والضروري والذي لا يمكن تلافيه. إذ يجب على البشر أن يسكنوا في مكان ما، وفي كيان ما، وهنا خارق للطبيعة كما هناك لأنه في أي من المكانين (في أي مكان) يبدو البيت كمقاطعة الكلام، دخيلاً على شيء. فلعل الأزهار كانت بلسماً، أو إذا لم تكن كذلك، فلعلها إشارة إلى البلسم الذي قد تمرغه لو كانت قادرة على أن تحصل على تعويض. الأزهار التي يمشي بينها هاورد الآن هي الوريثة القليلة المتبقية لذلك الردح المحلي المختصر من زمن المصيبة وإعادة إنتاجها، وقد شعر أنه أقرب إلى ذاك النوع من الأسرار الذي لطالما وجد نفسه يتساءل بشأنه، والذي لم يدرك مرة كم هو قريب من انكشافه أمامه، بعد أن يعي ذلك القرب. كما أن ظاهرة الوعي هذه كانت هي بالتحديد السبب في إبعاده، ولم يكن قد بقي لديه سوى التبصّر بمفعول رجعي، كنوع من التنور المتأخر الذي يبقى لكنه كان عصيّاً على الكلمات. فكّر: لكن، ماذا لو لم يستعصِ على العشب والأزهار والضوء والظلّ؟

فتح هاورد درجاً في عربته، وأخرج علبة دبابيس كان قد شطبها من دفتر الجردة، ودفع ثمنها بنسين من جيبه. ربط أربعة عيدان معاً بوريقات العشب الطويل، ثم اختار المزيد من أوراق العشب - طبقاً لعرضها - وفردها على الإطار المربع، وثبّتها على العيدان بواسطة الدبابيس. شدّ وريقات العشب بأقصى ما يمكن فتمزّقت عند الدبابيس. أخيراً، وجد الضغط المناسب، ومقدار الشدّ الذي يتحمله العشب قبل أن يتمزق. أخذ يسحب العشب ويلفّه بقوّة حول العيدان، حتى شكّل الأخضر لوحة ملساء فوق المربع. عندما أنهى عمله، فتح هاورد درجاً آخر في العربة وأخرج مقص الخياطة. جاء المقص في علبة كرتونية بنية، عليها رسم الأداة التي كانت تقص

قطعة قماش وعلامة البرق، وكان المقص ملفوفاً بورق أبيض. فك هاورد اللفافة بحرص، وشذّب أطراف العشب حتى التزمت سوية المربع. قصّ أطراف العشب بواسطة المقص، ولما انتهى، فرك الشفرتين بكفّه حتى لمعتا (وقد تركتا على قميصه بقعتين أشبه بالسهمين الأخضرين) ثم لفّ المقص بالورقة البيضاء وأعاده إلى العلبة وإلى الدرج الذي كان فيه. رفع الشيء في وجه الريح، آملاً الحصول على رسالة. رفع أمام نور الشمس وتوهّج الأخضر في اللوحة الساطعة.

رقّطت الأزهار البرية الحقل، مع النباتات دائمة الخضرة. جمع هاورد زهرات الحوذان (بيئتها: الحقول القديمة، المروج، المناطق المضطربة) والبراعم البيضاء الصغيرة التي ارتعشت في مهب الهواء والتي لم يعرف لها اسماً. هذه التي حاكها من سيقانها بحبل العشب، حريصاً على ترتيب الزهرات البيضاء والصفراء الواحدة بعد الأخرى. خاط منة برعم. جاءت الغزلان ترعى في الظلال الطويلة. حينما نظر عالياً، كان النهار يوشك أن ينقضي، وقد أهمل جولته. ما كان في علبة النقود سوى البنسين اللذين أخذهما من جيبه ثمناً للدبابيس. كان كولن، عميله، يملك أحدهما كاملاً ومعظم الثاني. خطر لهاورد أن يقشر الفضة عن البنس، بمقدار ظفر، ليعود إلى كاثلين في البيت ويلقي الفضة في يدها المفتوحة. فكر كيف ستفاجأ، وفكّر في غضبها المعتاد وهو يتحول إلى المفاجأة، ثم إلى السعادة لحظة يبرز، من خلف ظهره، سجادة العشب والزهور ويضعها بين يديها. ستقلّب فيها ناظريها، وستحملها إلى ضوء مصباح الزيت، كما فعل هو مع الشمس، لترى كيف ينير الضوء اللون الأخضر الحي. ستقرب اللوحة من أنفها لتشمّ رائحة الأزهار وسياقانها. ستحمل اللوحة تحت ذقنها، وتسأل إن كان يرى انعكاس زهرات الحوذان عليه وتضحك. ستقول: هذه البيضاء اسمها شقائق النعمان.

ارتجف هاورد إذ شعر فجأة بالبرد. الصيف سيثبّت ألوان الأرض المبرّدة بالرطوبة، لكن المياه الآن معدنية وقوية الانهمار لدرجة أنها تصدر رنيناً. سمع هاورد صدى المياه عبر التربة، ومن حول جذور النباتات. المياه على عمق كاحل بين العشب. البرك الصغيرة تراوح مكانها، والضوء المتسرب من فوقها يومض عبر الغيوم ليجعلها تبدو كالصنوج النحاسية. بدت وكأنها ستطنّ في ما لو ضربت بقضيب. طنّت البرك

الصغيرة. طئت المياه. أوقع هاورد سجادة العشب والزهور. اشتركت النحلات في نغمة الطنين الموحدة التي راحت تنبض. طنّ الحقل ودار حول نفسه.

قبل موته بأربع وثمانين ساعة، فكّر جورج: لأنها كالبلاطات رخوة الأطر تفصل بينها المسافة الكافية التي تسمح لها بحرية الحركة، حتى لو تحركت قلّة منها في مكان واحد، فلا تبدو وكأنها هي التي تتحرك، بل المساحة الفارغة بينها. وهذه المساحة الفارغة هي المساحة الناقصة، وهي القطعة الأخيرة من عدة قطع من الزجاج الملون، وعندما توضع هذه القطع الناقصة في الأماكن المخصّصة لها ستتشكل الصورة النهائية. إلا أن تلك القطع الملساء اللماعة المصقولة، هي أقراص موتي السوداء، بالرمادي والأسود مبيّضة ومجففة وموضوعة في مكانها، وكل شيء آخر سينتقل. إذاً، هذه نهاية محيّرة عندما تقف الأشياء ولا أعرفها أبداً، وهذه الحركة هي ذلك الفضاء، هي ما سيكون، وهي رهن رؤية الآخرين بأنها امتلأت، في أي إطار سينتهي بها الأمر؟ حينما تركب القطع الأخيرة وتتوقف الأخرى، سيكون هناك الترتيب النهائي. لكن ولا حتى هذا، لأن ذلك المنتهى سيكون هو نفسه ضرباً من القفز والاستعراض، جمع مربعات زجاجية ستبقى مع بعضها عموماً، لكنها تتحرك في كلّ آخر، وستختلط بها - بطرائق لا تحصى - ذكريات أشخاص آخرين. حتى إنني سأبقى مجموعة من الانطباعات مُخزّمة ومفتوحة على المزج مع كل المربعات الزجاجية الأخرى، العائمة على أطر أي كان، لأن هناك دائماً مساحة متبقية تعكس ما تبقى من وقتهم - لأحفاد أحفادي - أكبر من مساحة البلاطات. سأكون أكثر من مجموعة من الإشاعات المحاطة بهالة من الغموض، ولأحفادهم لن أكون أكثر من صبغة ذات لون غامض، ولأحفادهم لن أكون شيئاً يعرفونه. هذه أحجية في حد ذاتها. لكن، في كل الأحول، الألغاز شخصية، مثل: أين هو أبي؟ لماذا لا أستطيع إيقاف كل هذه الحركة وأستدل بالخطوط والألوان وأنواع الضوء على مكان أبي؟ ليس لأحلّ أي شيء، وإنما لأرى ثانية بكل بساطة؟ قبل ماذا؟ قبل الانتهاء، قبل التوقف. لكن التوقف لا يحدث، بل ينتهي ببساطة.

وقف هاورد عند المدخل المعتم، مبللاً وموحلاً ويشعر بالبرد. كانت الساعة التاسعة، أي بعد أربع ساعات من موعد العشاء، وبعد ساعة من موعد نوم ابنتيه،

دارلا ومارجوري، وابنه الأصغر جو. أما موعد نوم ابنه الأكبر جورج، فكان في تلك اللحظة تقريباً بسبب عمله بعد المدرسة ومهامّه الليلية (التي تتضمن تحضير شقيقه للنوم لأنه كان ابن عشرة أعوام، لكنّ عقله عقل ولد في الثالثة من عمره) إضافة إلى فروضه المدرسية. كانت العائلة متحلقة حول طاولة العشاء، الفتاتان من جهة، والفتيان من جهة أخرى، وزوجته كاثلين على رأس الطاولة، وكرسيه فارغ، أمامه صحن مليء بالطعام البارد. كانت الصحون مليئة بالطعام البارد أمام الأولاد وأمام زوجته. كان محتاراً ومنهكاً، وأول ما فكّر فيه حين رآهم كان: لا بد من أن الأولاد في حالة هستيريا. لم يكن يعرف كم الساعة، لكنه كان يعلم أن الوقت متأخر. وللمرة الثانية في اليوم نفسه انتابه إحساس بأنه وسط تداخل. وكأنه، وهو منهار ونصف متجمّد ومُدمّى، قد جلب معه الليل إلى غرفة الطعام، وخلط بين موعد عشاء عائلته وبين وقته هو المُبتلى. ما كان ليضبط ناظريه، وكأنه تعثّر بعالم آخر، حيث إنّه من الطبيعي جداً أن تتناول العائلة طعام العشاء عند التاسعة ليلاً. نظرت إليه كاثلين، ولكنها لم تقل شيئاً. لم يكن هاورد متأكداً إن كانت تتوقع منه أن يدخل الغرفة، جارًّا وراءه آثار الوحل، فيجلس إلى الطاولة ويحني رأسه متضرّعاً كما يفعل دائماً، ثم يتناول الشوكة والسكين ويشرع في أكل الطعام المتكتل البارد وكأنه ساخن، وكأنه هو ليس موحلاً وجريحاً ومبللاً حتى العظم، وكأن الساعة ليست التاسعة ليلاً، وكأن العالم كما يجدر به أن يكون وليس كما هو بالفعل.

Telegram:@mbooks90

أخرج جو إبهامه من فمه وقال: بابا موحل!

حدّقت دارلا إلى أبيها وقالت: ماما، ماما، ماما!

أحدث نَفَس مارجوري صفيراً قبل أن تقول: أبي. أنت. قذر!

قال جو: بابا موحل! بابا موحل!

حدّقت دارلا إلى المدخل المعتم حيث يقف هاورد قائلة: ماما، ماما، ماما؛كل مرة بصوت أعلى، وكل مرة بنغمة أكثر حدّة، حتى بعدما نظرت كاثلين إلى الأولاد، ومن دون أن تقول كلمة، أعلمتهم أن عليهم البقاء حيث هم، ووقفت وأخذته إلى غرفة الغسيل لتحضر له ملابس جافة، وتنظف وجهه ويديه بقطعة قماش.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقف جورج وذهب إلى جو قائلاً: هذا صحيح جو، بابا مغطى بالوحل، لكن ماما تنظفه وبعدها سنأكل أخيراً.أعطى جورج جو منديله، فأوقعه الصبي أرضاً في غمرة حماسته. وضع جو زاوية المنديل في أنفه معيداً إبهامه إلى فمه.

توجه جورج إلى دارلا وغطس منديلها في مياه الشرب، وربت به على جبينها قائلاً: لا بأس دارلا، لا بأس، إلى أن هدأت قليلاً.

على ماما أن تفعل شيئاً، عليها أن تفعل شيئاً، راحت تهمس. كانت مارجوري تصفر في أثناء تنفسها بسبب الربو الذي تعانيه، وصوتها يخرج كالصرير. حسناً، قالت لاهثة، أنا... ثم شهقت نفساً، ونفساً ثانياً، ونفساً ثالثاً، لتجمع الهواء الكافي للتفوّه بالكلمة... سآكل. مدّت يدها إلى البطاطا المهروسة الباردة منذ زمن. وحينما رفعت الصحن كانت ضعيفة جداً فسقط من يدها على الطاولة، وعادت لتغرق في كرسيها. سحب جورج كرسيها بعيداً عن الطاولة وساعدها لتقف على قدميها.

قال: عليك أن تذهبي إلى الفراش. سأحضر قماش البخار وبودرة الربو. لا تقلقي مما ستقوله أمي. سأحضر لك بعض الدجاج والبطاطا.

نظفت كاثلين هاورد في غرفة الغسيل حيث جلس صامتاً، وهو يمرّر لسانه المعضوض على سقف حلقه. فركت كاثلين وجهه حتى تقشّر خدّاه والتمعا بحمرة تكاد توازي حمرة الدم الذي غسلته لتوها. قال هاورد: أذكر كيف فعلت أمي الشيء نفسه عندما حصل لي ذلك للمرة الأولى. زرّرت كاثلين قميصه النظيف وقالت: الآن يمكنك تناول العشاء مع عائلتك.

عندما فرغوا من الأكل ورتبوا الطاولة وارتدوا ملابس النوم، كانت الساعة العاشرة والربع. لم تقُم كاثلين بأي تصرف يوحي بوجود خطب ما. فقد تجاهلت التأخير لأربع ساعات، وجعلت جراءها ينتظرون هاورد وصحونهم أمامهم. وعندما دخل بعربته التي كان على وشك السقوط عنها، يجرّه الأمير إدوارد ببطء ويقين عبر البوابة الخارجية، ثم ترنّح عند الباب، أكملت الأمسية بشكل طبيعي كما لو أنّ الساعة تشير إلى الخامسة. وكأنها انزلقت مع الساعة من التاسعة إلى الخامسة، وكأنها أبعدت

الساعات الأربع بينهما عنوة، أو استبدّت بنفسها وبأولادها بشكل من أشكال الإلغاء أو البطلان، تاركة كلاً منهم، ونفسها، مع عبء الساعات الأربع الإضافية والتي سيحملها معه كل منهم لبقية حياته، في البداية كلغز واحد غريب وعصيّ على الهضم، ثم كمقدمة لتلك الليلة عينها، بعد سنة، عندما جلست وأولادها، مجدداً، أمام صحون الطعام البارد، ينتظرون هاورد، وينتظرون سماع صوت عربته والبغل وصليل المسامير الصغيرة، لكنه هذه المرة لم يأتِ قطّ.

كان جو والفتاتان في أسرّتهم، والمطبخ نظيفاً، وكاثلين في غرفتها ترتدي قميص النوم، لما شعر هاورد أنه لا يزال خدراً وينهار بفعل الجهد الكهربائي الناتج عن النوبة. أوقف جورج الذي كان يضع كتبه وكتب شقيقتيه جانباً، وقال: جورج أنا... وقال جورج: لا بأس، بالرغم من أنه كان هناك بأس. لأن والدته ووالده تدبرا أمر إخفاء ما تكون عليه النوبة الحقيقية، وتصرفا وكأن الصَرَع غير موجود البتة، فإن الإشاعات حول المرض، والكلمات البديلة والصمت، كانت أكثر إفزاعاً من الحالة التي حرصا على حجبها. ثم ذهب جورج إلى سريره. تجول هاورد قليلاً في البيت المظلم، ووصل إلى الموقد في الردهة، والذي لفّمه حمولة قصوى من الحطب لأنه كان لا يزال يشعر بالبرد، قبل أن يقصد فراشه أخيراً.

استيقظ هاورد وكاثلين والأولاد جميعاً في الوقت نفسه قبل الفجر بقليل، مبللين بالعرق. تقاطروا جميعاً إلى الردهة كالسائرين في نومهم، ليجدوا الموقد الحديدي حامياً لدرجة أن لونه تغيّر وراح ينبض كالجمر المحترق.

2

كانت الصباحات تبدأ في العتمة. فقد كانوا يرتّبون البيت لبدء نهار جديد، حيث يكونون في قمّة نشاطهم حينما تتسلق الشمس أول الأفق ثم أغصان الأشجار القاتمة.

يُملأ الموقد بالحطب، والدلو بالحليب. (لطالما قعقع الدلو على ساق جورج فيما هو يعبر الفناء، ضاجّاً في الليل الأدهم، ليوقظ بقية الأولاد الذين يتثاءبون في أسرّتهم الدافئة، متهيبين الهواء البارد والمهام الصباحية. ستجد الأم مارجوري جالسةً في سريرها وهي تتنفّس بصعوبة وتصفر. وستفتح دارلا عينيها وتقول: الشمس تأخرت، الشمس تأخرت! أنا متأكدة أنها استيقظت باكراً أمس، ماما! ثمة خطب! أما جو فسيعثر عليه وقد وضع ساقه اليمنى في ساق البنطلون غير المناسبة، وهو يبتسم ويطالب بالفطائر المحلاة مع شراب القيقب؛ وهذا طعامه المفضل). ثم يُجلب الماء. وتُشعَل النار.

صباحاتك الباردة يملأها الأسى لأنه، وبالرغم من أننا لا نكون مرتاحين في هذا العالم، فهو كل ما نملك، لأن هذا العالم لنا، لكنه عالم شقاء. لذا، إنّ كل ما يمكننا ادعاء ملكيته هو هذا الشقاء. لكن، حتى هذا أفضل من لا شيء، أليس كذلك؟ ففيما تقطع الحطب المزين بالصقيع، بيدين خدرتين، افرح، ليقينك أنّ هذه هي إرادة الله، ونعمته عليك بأن يكون *ذلك* جميلاً، وجزءاً من يقين أكبر، كما كان والدك يقول في عظاته وفي البيت. وفيما يقضم الفأس الخشب، اطمئن، لأن الألم الذي يعتصر قلبك والحيرة التي تتملّكك يعنيان أنك لا تزال على قيد الحياة، ولا تزال بشرياً، ولا تزال مفتوحاً على جمال العالم، بالرغم من أنك لم تفعل شيئاً لتستحقه. وعندما تستاء من الألم الذي في قلبك، تذكّر: ستموت وتدفن قريباً.

كان هاورد مستاء من آلام قلبه. ساءه أن تعتصره الآلام كل صباح عند استيقاظه، وأنها لا تتلاشى إلا بعد أن يرتدي ملابسه ويشرب قهوته الساخنة، وأحياناً تبقى معتصرةً إياه إلى ما بعد مروره لأخذ البضائع في عربته، وبعد أن يكون قد أطعم الأمير إدوارد وربطه إلى العربة، بل ربما تلازمه الآلام إلى ما بعد انتهائه من جولته،

وإلى حين غفوته ليلاً، ولعلها أيضاً تعذّبه في أحلامه. كان استياؤه من تلك الآلام يزعجه أيضاً. وكان يستاء من استيائه لأنه كان يدلّ على محدوديته وتواضعه، مع أنه يعرف أن ذلك عبء كل إنسان. كان الألم يضايقه لأنه يحل بلا دعوة، ويفرض نفسه، مثل حُكم. وبالرغم من التشجيع الذي يمدّ نفسه به كل صباح، فقد كان الألم يربكه لأنه كان يشعر به في الأيام الجيدة والسيئة على حدّ سواء، يشعر به حتى لو صادف لطفاً هائلاً أو عدوانية بسيطة، يشعر به حتى لو عانى حزناً بلا مصدر أو فرحاً عفوياً.

هذا الصباح؛ صباح الاثنين الذي تلا صباح الجمعة، عندما انهمر الثلج قبل الفجر، وكان هاورد قد توقف لينظر إلى الحقل الذي كان يوماً ما أرضاً ومسكناً لعائلة. كان في حالة موسيقية متضاربة، قد ولّف عملاً فنياً معقّداً من العيدان والعشب والأزهار، وقد نسي تماماً ما فعله، ثم أصيب بالنوبة وأفاق متجمداً في الحقل ليدرك أخيراً من هو، وأين هو، ووجد طريقه إلى البيت. جلب له هذا الصباح خوفاً من نوبة تتربص به في مكان ما على الطرقات الخلفية التي ينوي سلوكها. جلب له خوفاً من أن هناك سهم برق يتكوّر خلف صخرة أو جذع أو في جوف شجرة أو في قلب عشّ غريب، وأنه سيفلت عليه لدى مروره قربه فينفجر وهو يطوّقه.

يا لك من متكبّرا لأي هدف تختار لنفسك مثل هذا الاهتمام، نافعاً كان أم ضاراً؟ تقدّم نفسك فوق نفسك. انظر إلى قبعتك المغبرّة: تبدو رخيصة، مهترئة، ومرقّعة بقطع من آخر قبعة رخيصة ومهترئة قبلها. أي تاج؟ أي ملك أنت لتستحق مُصاباً كهذا؟ ارتفع أعلى، فوق الأشجار. تاجك تصعب رؤيته من خلف غبار الطريق وأوساخ قناة صرف المياه. لكنك لا تزال مدهشاً. ارتفع أعلى، لعلك تبلغ الارتفاع حيث تخفق الطيور السوداء بأجنحتها. أين ذهبت؟ آه! ها أنت، على ما أظن. هذا أنت، أليس كذلك؟ ذاك الهزيل المتباطئ؟ إلى أين ذهبت؟ والآن أعلى، إلى حيث، إن لم تنتبه، قد تصطدم إبهام قدمك بجبال القمر. أين أنت؟ لا علينا منك. أين بيتك، وطنك، دولتك، أمّتك؟ آه! ها هي. والآن أعلى، كي تهب نار الشمس على شعرك ورموشك. على أي من تلك الأجسام المنيرة ستحكم مملكة أوساخك، عربة الصابون خاصتك؟ حسناً، هذه. أتمنى أن تكون على حق: لا حاجة إلى مصلّحاتي. ... حسناً! إلى أين

ذهبت؟ إلى أي من ملايين المظاهر البراقة تنتمي؟ في أي مكان ستكدح وتجهد لاستقطاب الزبائن ثم تسقط أرضاً وتشق طريقك بين الطحالب؟

بات الطقس أكثر دفئاً، وكانت العائلة تجلس على الشرفة أيام الآحاد بعد العودة من دار العبادة. كانت الشرفة بطول واجهة البيت، ومحاطة بباقة كثيفة من الأزهار البرية. في أوائل تموز، تجد الجزر البري وأزهار أذن الفأر الزرقاء. أرضيتها غير متساوية، وفيها انحدار خفيف من إحدى الجهات (حيث الباب الأمامي) إلى الأخرى (مباشرة بعد النافذة التي تظهر منها طاولة الطعام). وإن نظرت إليها من الشارع، يبدو أن البيت مائل إلى اليسار، والشرفة إلى اليمين، حتى ليظهر أن كلاً منهما يشد الثاني ليبقى واقفاً. إنما، من جانب البيت، يبدو أن العكس هو الصحيح، أي أنهما وقعا الواحد على الثاني، وأنهما ظلا واقفين بفضل وزنهما المتبادل. ومن أي زاوية نظرت، يبدو البيت متصدّعاً. كأن الجدران على وشك الانهيار، الواحد تلو الآخر، والسقف ينزل رويداً رويداً ليحط على قمة الخربة حتى يجعل حطام البيت مثل ورق اللعب المرتب بعناية، الورقة بالتحديد فوق الأخرى.

لم تكن الشرفة مطلية، فقد ابيضّ خشبها مكتسباً لوناً فضياً. كانت السماء حينما تمتلئ بالغيوم، تتحول إلى اللون الفضي نفسه، حتى يبدو أنها لا تفتقر سوى إلى بعض النشارة لتصبح خشباً، والخشب لا يعوزه سوى نَفَس من الريح يحرّكه فيصبح السماء. رقعة معينة من الشرفة، إلى يمين الباب الرئيس، حينما تطأها قدم، تهتز الشرفة كلها وكأنها ترتكز على غصن. هناك كرسيان باليان، واحد هزاز كان ذات يوم مطلياً بالأحمر، وكانت تجلس عليه كاثلين لتقشّر البازيلاء أو تفلق حبات الفاصولياء وتصرخ قائلة لجو: قف حيث يمكنني أن أراك، وهو يتمرّغ على الأرض في الجهة الجانبية. ويجلس هاورد على الكرسي الثاني، وهو كرسي قديم، مضلّع الظهر، ويشكّل مع الأرضية مجسماً متوازي الأضلاع، مائلاً إلى هذا الجانب أو ذاك، بحسب جلسة هاورد، وتقرقع أضلاع الظهر منفصلة أحياناً عن قاعدتها، ممّا يلزمه بأن يقف كل بضع دقائق ليضبط جزءاً منها في مكانه. يجلس الأولاد على دلاء مقلوبة أو صناديق التوضيب. القطة راسل، والكلب بادي، يستلقيان في المساحة المشمسة. تساعد دارلا ومارجوري كاثلين: حين لا تكون مارجوري في السرير تعاني أزمة ربو

يطلقها غبار الطلع، أو بعض أنواع الأعشاب، وعندما لا ترى دارلا دبوراً أو عنكبوتاً - وهذا غالباً ما يحصل - يرسلها إلى داخل البيت زاعقة، وغالباً مروراً فوق ذاك الجزء من الأرضية، تاركة بقية أفراد العائلة وهم يحاولون ضبط توازنهم على الشرفة المتمايلة فيما هي تهرب إلى أعمق مخبأ داخل المنزل. هاورد وجورج يلعبان بالورق.

سبعة.

خمسة عشر إلى اثنين.

أربعة وعشرين إلى ثلاثة.

هيا.

واحد وثلاثون إلى أربعة.

كانا يلعبان بلا لوح، ويحتسبان النتائج كلها على حاشية صفحة الكاريكاتور في الجريدة. ***يقول أبي:*** جورج، لا أجد اللوح، ***وأقول بدوري:*** غريب يا بابا، لا بد من أن يكون على الشرفة حيث تركناه. ***كنت أتظاهر بمساعدته على البحث عنه لساعة من الزمن إلى أن يستسلم وأتظاهر مثله بالاستسلام، ثم نستخدم قصاصة من الجريدة لاحتساب النتائج. كنت آخذ اللوح؛ أسرقه وأهرب به إلى سقيفة راي حيث كنا ندخن ونلعب الورق حيث ينال الرابح الكِلَل أو السهام.***

لقد فوّت خمسة عشر. حسناً. هزمتني مجدّداً يا جورج.

أشتمُ ظرباناً؛ زوجاً من الظربان.

تقول كاثلين: جورج، أحضر أخاك. اذهب وأحضره.

ممنوع الغش، ولا تنظر إلى ورقي.

لن أفعل. جورج، انهض عن الصندوق.

امشِ. وهكذا مشى. استدار حول ناصية البيت ونادى أخاه، ولما رآه عالقاً على شجرة وهو يقضم حفنة من الأزهار، التقط حصاة وقذفه بها. ضربت الحصاة أذن

جو وبدأ يبكي. قال جورج بصوت عال، ليسمعه والداه: آه! جو، لا تبكِ. سأخرجك من هناك. جو، لا تبكِ. سأحضر لك الماء لتغسل مرارة أزهار الربيع.

ماذا عن مجسمات صغيرة لقوارب مصنوعة من خشب البتولا والأوراق المتساقطة، والتي تُطلَق على صفحة الماء البارد الصافي كالهواء؟ كم أسطولاً دُفع إلى وسط البركة أو انحدر مع جداول الخريف، حاملاً كنوز البلّوط أو الريش الأسود أو سحلية محتارة؟ فلتُدرج تلك الأعمال اليدوية مع الأجسام الحديدية التي تمخر البحر، فهي جميعاً ارتجالات مبنية من أحلام اليقظة، وكلها ستذوي، من حصار المحيط أو نسيم أكتوبر.

وماذا عن مراكب نقل البضائع المصنوعة لتحترق؟ في إحدى الأمسيات، فيما كان يمشي في الغابة قرب البيت بعد العشاء، لمح هاورد جورج راكعاً على الطريق وهو يتفحص شيئاً على الأرض. لم ينتبه إليه جورج، فجمد هاورد وراء الشجر وهو يراقب ابنه. وقف جورج وعاد مسرعاً باتجاه البيت. ركض بعيداً عن مرمى نظر هاورد، وبعد لحظات، سُمع باب البيت يصفق خلفه. توجّه هاورد إلى حيث كان ابنه يجلس القرفصاء فوجد فأراً ميتاً، ومتكوراً على نفسه كالنائم على أوراق الشجر. لم يمت الفأر منذ وقت طويل. وخزه هاورد قليلاً بمقدمة جزمته، فتراجع رأسه وتباعدت أطرافه، ثم تكوّر من جديد. صُفق باب الشرفة مجدّداً فتراجع هاورد إلى ظلال الأشجار.

عاد جورج إلى الفأر، ولفّه بجريدة، وربطها جيداً بخيط أحضره من المطبخ. دسّ الفأر الملفوف في علبة كبريت فارغة. اشتم هاورد رائحة كيروسين ففهم أن ابنه كان قد بلّل ورق الجريدة به.

كانت هناك بركة صغيرة عند الغابة خلف الفناء. هي محطة لزوجين من البط وسرب صغير من الإوز كل عام، لا يتجاوز عمقها خمس أقدام على الأكثر. أحياناً، كان جورج يصطاد السمك هناك فيلتقط الترويت الصغير الذي يطهوه على نار يشعلها إلى جانب البركة. أيام السبت، كان يصطاد عند المغيب، وهو الوقت الذي يزخر صيفاً بذباب أيار وذكور البط التي فقست لتوها من البيض وكانت تجعل السمك يقترب

من سطح الماء. بعد قليل، قد تُفلت الخفافيش من العتمة على سطح الماء لتقتات على الحشرات. عندها، يتوقف جورج عن الصيد لأن الخفافيش تحوم حول طرف صنارته، وكان يخشى أن يعلق خفّاش في الصنارة ويبدأ بإصدار صوته المزعج، ثم يحاول تخليص نفسه من دون أن يعرف أنه يمزّق جناحيه الهشين. لم يكن حتى يحتمل فكرة أن يمسك الخفاش ويسحب الصنارة، بحيث كان الخيار الوحيد تركه يصارع موته على الطرف الآخر من القصبة، ثم العودة في صباح اليوم التالي لأخذ القصبة على أمل أن يكون ثعلب قد مرّ بالمكان وأكل الخفاش (من دون أن يبتلع الصنارة مع الخفاش. فعندها، سيصبح الثعلب أيضاً أسير الصنارة التي ستمضي معه وستتحرك بين معدته وبلعومه فتجرحهما وتجرح زاوية فمه). لذا، عند خروج الخفافيش، يشرع جورج بطهو السمك الذي اصطاده - إن كان قد اصطاد شيئاً - مراقباً الظلام وهو يستقر، ثم يعود إلى البيت.

مشى جورج باتجاه الماء فتبعه هاورد بهدوء على مسافة منه. على حافة الماء، قصّ جورج قشرة جذع شجرة بسكينه الصغيرة. خاط القشرة الخشبية بخيط غامق وإبرة خياطة سميكة، فبدا بين يديه ما يشبه الزورق. وضع النعش الصغير بمحتواه في وسط الزورق وقربه قطعة فحم استلها من جيب بنطاله. أشعل الفحم بعود كبريت أحضره من المطبخ وقدحه على سخاب بنطاله، ثم أطلق الزورق. تحرك الزورق طافياً على وجه الماء. أضاءت الجمرة المشتعلة قشرة الجذع فبدت كمخبأ حيواني متوهج. كان الهواء ساكناً، وسطح البركة صقيلاً وعاكساً للضوء كالزيت، والتموجات التي خلّفها الزورق الصغير خلفه راحت تتسع ببطء، وكأنما جلد الماء يقاوم بقوة أكبر اختراق الأجسام له هذا المساء. خرجت فراشات بيضاء من بين العشب عند حافة البركة ورفرفت فوق الزورق وكأنها تداعب النار. بلغت النار علبة الكبريت واحتكت بها فبدأ الدخان يتصاعد. حينما بلغت النار داخل العلبة، ولامست الجريدة المبلّلة بالكيروسين، التهبت، وصدر صوت مكتوم، وابتلع اللهب النعش. طقطق الخشب وبصق شرارات. ثم تصاعد دخان أبيض حيث إنّ هاورد تخيّل أن الفأر يحترق. أضاء المشهد انعكاس صورة جورج على صفحة الماء. غرقت المحرقة مُصدرةً فحيحاً ونفحة دخان أخيرة، ثم عادت البركة إلى عتمتها وسكونها.

حرق الميت. هذا ما فكر فيه هاورد، وواتته رؤيا ملوك الفايكينغ المستلقين على أسرّة جنازاتهم، وتحملهم سفن تتصدر مقدماتها مجسمات التنانين، ثم تشعل النار التي تستعر فوق الأمواج المتكسرة، والشعلات تفرقع من آخر السفن كالرايات في العاصفة.

شعر هاورد بمرور ابنه من جانبه في الظلام، بدلاً من أن يراه. ثم انتظر مطرقاً، ليجد الصبي طريقه بين الشجر، صعوداً على الطريق، وإلى الفناء ثم إلى البيت، قبل أن يتحرك هو، إنما ليس باتجاه البيت، بل ليتعداه إلى الطريق الخلفية. ثم استدار، حتى إذا ما رآه أحد من البيت فسيبدو وكأنه عائد من نزهة ما بعد العشاء التي قال إنه سيقوم بها. وصل إلى أمام البيت حيث رأى جورج ودارلا ومارجوري، عبر النافذة الأمامية، وهم ينجزون فروضهم المدرسية على طاولة الطعام.

سأسدد ديوني عسلاً!

ماذا لو أن العربة، بدلاً من البيت المدولب، احتوت على مملكة نحل؟ سيكون هناك لوح على جهة واحدة، مثبت في الأعلى بمفصلات نحاسية، وسيفتح ويرفع بأعمدة عند الزوايا. ستطل النوافذ على القفير، وسيقف الناس ليشاهدوا النحلات وهي تعمل، فيما ألقي محاضرات عن عادات تلك الحشرات، وصناعتها ووفائها. لعلني أتقاضى سِنتَين اثنين من كل شخص. يمكن للصغار أن يشاهدوا مجاناً. وفي وسع المدارس إرسال صفوف كاملة، أو أفضل من ذلك، في وسعي أن أذهب أنا إلى المدارس. لعلني أزرع سريراً من الأزهار في أعلى العربة من أجل اللقاح، وأجعل مدخل القفير من الجهة المقابلة للنوافذ كي لا يزعج المشاهدون النحلات. وربما أبني كابينة في آخر العربة، أملأها بجرار العسل والشمع وأقراص العسل المربوطة بشرائط ملونة مبهجة، فأبيعها للجمهور بعد المحاضرة. سيُكتَبُ على اللافتة المطلية على اللوح الجانبي: "نحلات كروسبي المدهشة!".

إلا أن الشتاء حلّ، ووضع العربة جانباً في الإصطبل حيث تعشش الفئران والقطة الشاردة في الأدراج، في ما يشبه الهدنة نصف المتجمدة.

عرف جورج بكل نوبات أبيه كما تُعرف الإشاعة، باستثناء واحدة. وجد أمه

منحنية فوق أبيه مشعث الشعر والمرتجف على كرسيه. شعره يخالطه اللعاب، والدم على ذقنه. يجلس أبوه ويشخر أنفاساً سريعة عبر أنفه ناظراً أولاً إلى كفيه، ثم إلى ظاهرهما، فيما هو يشدّ قبضته ويرخيها كما قد يفعل جندي بعد انفجار قنبلة في خندقه، ثم فوجئ بأنه لا يزال على قيد الحياة وربما لم يتأذ. فهم جورج لاحقاً أن تفسير ذلك هو أن أباه كان يشعر بالنوبة قبل وقوعها، ولطالما استطاع، بمساعدة أم جورج، أن يبلغ زاوية فارغة في البيت أو فنائه، أي حيث لا يتواجد الأولاد، فلا يرونه وهو يتلوّى ألماً. وإذا ظهر أحد الأولاد مصادفةً، فإن كاثلين تقول له بصوت هادئ لا انفعال فيه: اذهب الآن إلى حيث أتيت، أبوك وأنا مشغولان. المرة الوحيدة التي رأى فيها أباه خلال نوبة عظيمة وقاسية، مع شقيقه وشقيقتيه، كانت ليلة الميلاد عام 1926.

اندهش الأولاد لدى رؤيتهم الحيوان الذي طهته أمهم لليلة الميلاد. كان أكبر حيوان رأوه في حياتهم، مدهوناً بالدبس والسكر الأسمر. جلس الكلب بادي متنبهاً وكأنما ليوصي بنفسه، كما الأولاد، بحسن تصرفه. طردته كاثلين بركلة خفيفة بين ضلوعه، لكنه نبح بخفة من دون أن يتزحزح. ودخلت القطة راسل أيضاً لتجلس مواجهةً الحائط، بعيداً عن الطاولة، وهي تنظف كفيها، وكأنما التظاهر باللامبالاة هو الخدعة التي ستجلب لها فُتاتاً لذيذاً.

كان هاورد قد سنّ سكين المطبخ خصيصاً للمناسبة. وقف وانحنى فوق الحيوان وابتسم للأولاد وزوجته التي عبست وطلبت إلى جورج أن يُجلس شقيقه على كرسيه، وصرخت على الفتاتين مهدّدة إياهما بأنهما ستضربان بالملعقة على سيقانهما إن لم تستقرا على كرسييهما. قطّع هاورد شرائح اللحم مما أطلق المزيد من العبق اللذيذ في أجواء الغرفة، وجعل الجميع كالمنوّمين مغناطيسياً بمن فيهم كاثلين. اختفى عبوسها، وراحت، حتى هي، تحدّق إلى الحيوان في لحظة تقدير. لكن، بعد شريحتين قطعهما هاورد، استعادت رباطة جأشها المعتادة، وانصرفت إلى توجيه الأولاد كي يمرروا صحونهم لأبيهم للحصول على حصصهم.

جورج، اجلب اللحم لجو وقطّعه له. لا، فلتكن القطع أصغر وإلا فسيحاول ابتلاعها

من دون مضغها فيختنق. دارلا، توقفي عن تلك السخافات. خذي بعض الفاصولياء ومرريها. هاورد، فلتكن الشرائح أرقّ، يجب أن يصمد الطبق أسبوعاً بما أنك وجدت أنه من المناسب أن تتقاضى حيواناً بدلاً من المال الذي يُدان لك به، والذي كان ليسد عوز عائلتك.

رفع هاورد قطعة بطاطا بشوكته. وغرز بها بعض الفاصولياء وقطعة لحم. رفع الطعام إلى فمه لكنه توقف قبل أن يتذوقه. تلوّت العضلات عند مفصلي فكّه، ولهث، ورفّ جفناه. انقلبت حدقتاه في محجريهما. وقعت من يده الشوكة بحمولتها على صحنه مصدرة ضجيجاً.

ماما، ماذا...؟

حرّك هاورد ساقيه محاولاً الوقوف، لكنه التفّ على نفسه على كرسيه الذي صرّ تحته، ووقع على الأرض ضارباً رأسه بمقعد الكرسي.

صرخت كاثلين قائلة لمارجي: أخرجي أخاكِ من هنا، ودفعت الثلاثة الصغار دفعاً، وكانوا قد تكتلوا فعلاً قرب بعضهم كعقدة مرتجفة عند الباب. أصبحوا خارج الغرفة بدفعة واحدة. دارت حول الطاولة ومدّت يدها لجورج الذي كان لا يزال جالساً على كرسيه، وهو يحمل شوكته إلى فمه المفتوح كالأبله.

جورج، أعطني الملعقة، نظر جورج إلى أمه، جورج، أعطني الملعقة، قالت مرة أخرى، ليس بغضب أو بصوت عالٍ أو بأسى، بل بما يقارب اللطف. أنزل شوكته وسحب الملعقة بسرعة من صحن البطاطا.

قال: لا يزال هناك...

قالت كاثلين: أعطني الملعقة يا جورج. انتزعت الملعقة من يد جورج، وانقضّت على زوجها وفرشخت فوق صدره. شخر هاورد وحشرت كاثلين الملعقة في فمه أفقياً كي لا يعضّ لسانه. عض هاورد على الملعقة ورأى جورج كيف تنحسر شفتا أبيه عن أسنانه، وفكّر في أنه يبدو كجمجمة وليس كرجل، ليس بابا.

جورج، تعالَ إلى هنا وأمسك الملعقة. هكذا. كان جورج مرعوباً من الجلوس على

صدر أبيه.

استخدم يديك الاثنتين، ولا تدع رأسه يضرب الأرض. شعر جورج بجسم والده يزلزل من تحته، وكان متأكداً من أنه سيمزق نفسه قطعاً، وأن والده سينشق إلى نصفين.

ماما.

سأحضر قضيباً. هرولت كاثلين إلى خارج الغرفة وسمعها جورج ترتطم بطاولة المطبخ موقعة الأواني والأوعية التي سقطت على الأرض مصدرة ضجيجاً. تأوهت وعادت بقضيب كان جورج قد أحضره صباح اليوم نفسه. وما إن وصلت إلى جورج وهاورد حتى انكسرت الملعقة في فم هاورد، ووقع جورج فوق وجه أبيه. حاول جورج أن يرفع نفسه، لكن يديه انزلقتا على بركة من الدم الداكن اللزج الذي تجمع على الأرض تحت رأس أبيه. رفع نفسه متكئاً على معصميه، ورأى أباه فاغراً فمه وعلى وشك ابتلاع قطعة من الملعقة. دفع جورج أصابعه في فم هاورد ليسحب القطعة فعض عليها هاورد بكل قوته. شهق جورج حين رأى أصابعه عالقة بين أسنان أبيه المدماة.

تكلمت كاثلين بصوت حادّ النبرة: لا بأس يا جورجي. لا بأس. هل يمكنك أن تحمل القضيب؟ احمل القضيب. حاولت فتح فاه هاورد. دعني أمسك بذقنه يا جورجي. ضغطت على فكّي زوجها وكأن فمه فخ للدببة وقد انطبق.

ماذا لو كسرت فكّي بابا؟ فكر جورج.

أدخِل القضيب، جورجي... طرفه. أدخِله تدريجياً. ارتطم رأس هاورد بالأرض مراراً وتكراراً. وتمكّن جورج أخيراً من دفع طرف القضيب بين أسنان أبيه من جانب فمه. أمسكت كاثلين القضيب فوراً، وبضراوة عقّقت موقعه. ومن دون أن تنظر، تناولت وسادة المقعد عن الأرض ودستها تحت رأس زوجها الذي كان لا يزال يرتطم بالأرض. كانت قدما هاورد تركلان قوائم الطاولة. وقفت دارلا عند المدخل وزعقت، وشهقت مارجي طلباً للنَفَس، أما جو فبدأ بالصراخ.

انكسر بابا!

نعم، هكذا، جورجي. كدت تنجح يا حقلي الصغير.

أحدثت ركلات أبي لقوائم الطاولة والأرضية ضجة هائلة، فكل ما على الطاولة قفز عنها وارتطم بها ثانية، أو وقع عنها وتهشم على الأرض: الزجاج والطعام والشوك والسكاكين ملأت أرض الغرفة، وأخذ الكلب بادي ينبح، وصرخت دارلا، لكن أبي كان صامتاً بشكل غريب وسط ذلك كله، كأنه مركز أو مشتت الانتباه فيما تقفز العروق والضلوع والأمعاء وتتفجر، وتُحلُّ وتصيبها اللوثة. كان يبتسم حينما كاد أن يقضم أصابعي فيبترها، أو هكذا بدا لي، وكان صامتاً أيضاً. امسكت أمي بذقنه وقمت بدفع القضيب بين أسنانه المدماة، ولم أعد أخشى أن أكون قد آلمت شخصاً، وهذا ما جعلني أشعر بالغثيان. الدم في كل مكان. بدءاً من أصابعي التي بدت متدلية من يدي وكأنها على وشك الانفصال عنها - بالرغم من أنني كنت لا أزال أشعر بالدم ينبض فيها - وصولاً إلى وجه أبي الذي كان الدم يغطيه، دمي، ويلوث شعره والأرض، ودمه السائل من رأسه الذي جرحه عندما ضربه بالكرسي في أثناء سقوطه. ولسبب ما، لاحظت القطة راسل تهز رأسها وأذناها منتصبتان، وحدقتا عينيها الواسعتين صغيرتان. وأنفها المثلث الصغير يتحرك يمنة ويسرة فيما تشتم الدم وتحدق إليه. وبدلاً من أن أغرق في رعبي، فكرت: إذاً، هكذا يبدو الأمر عرفت النوبة الآن. أبي ليس مستذئباً، أو دباً، أو وحشاً، والآن يمكنني أن أهرب.

ها هي كاثلين، مستلقية على سريرها بين الأغصان العارية لشجرة دردار داكنة تبدو بالية. إنه الشتاء، ورياح الشتاء تهز الأغصان، والسرير يهتز معها. إنه الشتاء، والشجرة تعرّت من حجاب أوراقها. إنه الشتاء، لأنها تستلقي مستيقظة بقلب عارٍ، وتحاول أن تتذكر فصلاً أكثر اكتمالاً مفكّرة: لا بد من أنني كنت شابة ذات مرة.

تستلقي على نصف السرير، والشكل الداكن لزوجها النائم يستلقي على النصف الثاني منه مضطجعاً على جنبه، نائماً بعمق وكأن النوم عالم آخر. لا يظهر سوى وجهها من تحت الأغطية، ويتوهج كبيضة شاحبة. تحت وجهها، شرشف أبيض نظيف ومكويّ ومنشّى، مطوي تحت ذقنها وملتفّ على طرف اللحاف لتظهر ستة

إنشات من حاشيته، تماماً كما علمتها أمها أن ترتّب السرير عندما كانت فتاة صغيرة. شعرها مرفوع ومغطى بقلنسوة النوم التي خاطتها لها أمها قبل سنوات طويلة. وبالرغم من أن شعرها طويل حيث إنه يتجاوز خصرها، إلا إنها لا تفرده إلا لتغسله مرتين في الشهر صيفاً، ومرة في الشهر شتاءً. شعرها أسودُ ضارب إلى الحمرة، لكنه فقد لمعانه، وبدأ يتساقط، لا سيما عند قمة رأسها. هي غاضبة لأن الجرح في رأس زوجها قد ينزف عبر الضمادات فيلطّخ غطاء الوسادة النظيف. تسمع جورج من غرفته الموجودة في آخر الرواق، وهو يئن في نومه. لم تبدُ أيّ من أصابعه مكسورة، لكنه ربما يحتاج إلى قطبة أو اثنتين لضمان التئام الجروح التي خلّفتها أسنان هاورد. لم ترد إيقاظ الدكتور بوكس عبر الهاتف، فهذه ليلة الميلاد، وهي تنوي أن تأخذ جورج إلى عيادته صباحاً.

يتقنّع أساها العميق، بصلابتها وطبعها الذي لا يحتمل المزاح. فهي تشعر بالأسى الذي لا يمكن لزوجها أو أي من أولادها تخيّله. فهي لم تتعافَ من صدمة أنها أصبحت زوجة وأمًا بعد، ولا تزال تفزع، كل صباح، حين ترى أولادها نائمين على أسرّتهم بسلام وهي تقترب لإيقاظهم. وغالباً ما تشعر بالامتعاض، وبالخسارة. تخيفها تلك المشاعر كثيراً لدرجة أنها دفنتها تحت طبقات وطبقات من الحزم المنزلي. وخلال اثني عشر عاماً من الزواج والأمومة، اقتنعت نوعاً ما بأن إدارتها شبه العسكرية لمنزلها هي في الحقيقة الحب الذي ترعبها فكرة أنها ربما لا تشعر به. فحينما يستيقظ أحد أولادها وهو يعاني سعالاً مؤلماً وحرارة مرتفعة، في فجر صباح مثلج من كانون الثاني، بدلاً من أن تقبّل جبينه وتضعه في سريره وتحضنه باللحاف ثم تغلي الماء لتعد كوباً من الليموناضة الدافئة مع العسل، فإنها تقول إن قدر الإنسان ألا يكون مرتاحاً في عالمه، وإنها إذا أخذت يوم عطلة كلما أصابها زكام أو تصلّبت رقبتها، فإن البيت ستسوده الفوضى، وسيكونون كالطيور بلا عشّ. فلينهض الولد وليرتدي ملابسه ثم فليساعد شقيقه على التحطيب، وشقيقته على جلب الماء، ثم تشدّ الغطاء عن الولد المرتجف وترمي له ثيابه الباردة قائلة: انهض وارتدِ ملابسك إلا إذا كنت تريد أن تُرشّ بالماء لتستيقظ. لقد أقنعت نفسها، على الأقل في ضوء النهار، بأن هذا هو الحب، وأن هذه هي الطريقة الفضلى لتربية أولاد أقوياء. لم تكن

لتطيق نفسها لو أنها سمحت لنفسها بأن تصدق أنها تعامل أولادها هكذا لأنها لا تشعر بالارتباط بهم إلا بقدر ما تشعر تجاه مجموعة حجارة.

فيما كانت تغفو، نصف حالمة بالطيران وبالأسرّة على أغصان الشجر، قررت أن الوقت قد حان لتفعل شيئاً بخصوص زوجها المريض. ستسأل عن الموضوع بعد أن يعاين الدكتور بوكس يد جورج.

في صباح اليوم التالي، ارتدت ملابسها باكراً. تجمّع الصقيع في الجهة الداخلية من النوافذ، ولا إشارة إلى الشمس بعد.

تحرّك هاورد قليلاً سائلاً: ما الأمر؟

قالت كاثلين: سآخذ جورج إلى الطبيب.

قال هاورد: لماذا؟ ما به؟

أجابت كاثلين: العضّة يا هاورد، عضّتك.

جاء صوت هاورد كالنعيق: العضّة؟ عضّة؟

كانت المسافة التي يستغرقها الوصول إلى بيت الدكتور بوكس - حيث تشكل الغرفتان الأماميتان عيادته - تبلغ نحو ميلين. أدرك الفجر كاثلين وجورج فيما هما يسيران على جانب الطريق، هي أمامه، وهو يجرجر قدميه وراءها، نصف نائم، ولا يعي سوى البرد ورأسه الذي يؤلمه. في البداية، كانت السماء جمراً ليلياً متقداً، ثم سطع ضوء أحمر في الأفق أضاء أسفل الغيوم الآتية من الغرب. قلقت كاثلين من ألا تسعفها جرأتها للتحدث إلى الدكتور بوكس بشأن زوجها. لكن، مع اقترابها وجورج من عيادته، ازداد تصميمها.

كان بيت الدكتور بوكس عند آخر منعطف في الطريق قبل منطقة ويست كوف. وصلت كاثلين مع جورج إلى المنحدر متوقعين أن يطلا منه على المبنى ذي الطبقتين والشرفة التي تزنّره، حيث يحب المرضى أن يجلسوا صيفاً، وحتى من هم ليسوا شديدي المرض، لتبادل النميمة في انتظار دواء يشفي حموضة معدة، أو

كفادة يضعونها على مسمار لحم في القدم.

اختفى البيت. توقفت كاثلين ونظرت حولها؛ الغيوم التي لونت الفجر بالنحاسي كانت قد تقدمت واستقرت أمامهما مثل غطاء حجري. هبت رياح ثلجية. لا شك في أن كاثلين تقف في المكان الصحيح، ولا شك في أن بيت الطبيب قد اختفى. وبدلاً من البيت، كانت هناك حفرة في الأرض. وما كان قبو التخزين في بيت الدكتور بوكس، حيث كان يحفظ زجاجات السائل المطهّر والضمادات، إلى جانب مرطبانات الخيار المخلل والبندورة والإجاص المحفوظ، أصبح الآن خندقاً فارغاً مكشوفاً، وقد بدأ يمتلئ بالثلج وفتات الصخور التي جلبتها رياح الشتاء.

ماذا حدث يا ماما؟ هل هبّ إعصار؟

امتدت آثار التربة المقلوبة من مكان ما كان الفناء الأمامي لبيت الدكتور بوكس، إلى الطريق، وأكملت عند المنعطف باتجاه ويست كوف. وقفت كاثلين عند طرف الأساسات المحفورة. عندما أزيل البيت من مكانه، صارت البحيرة ظاهرةً خلف أشجار ما كان يشكّل فناء البيت. استدارت كاثلين باتجاه الطريق، ثم باتجاه الحفرة في الأرض مجدداً، وهي غير متأكدة مما يجب عليها فعله. دبّ في قلبها الذعر خوفاً من أن تكون ويست كوف بكاملها قد اختفت، وأنها إذا سارت إلى ما بعد المنعطف، فإنها ستجد خلاء عارياً عند طرف البحيرة، ومن حولها جيوب الأساسات مفتوحة البطون حيث المباني المفقودة، وأن تكون البلدة بأسرها قد اقتلعت وجُرّت إلى خلف الجبال شمالاً.

هل سمعت يا ماما؟

خلف الريح، كان هناك صوت آخر. أمسكت كاثلين بيد جورج السليمة ومشت به في الطريق. سمعت قعقعة لم تعرف مصدرها. جمدت في مكانها محاولة تحديد ماهية الصوت. لم يكن رعداً، ولا صوت قطار. اكتشفت، خلال وقوفها أن الصوت يصاحبه ارتجاج في الأرض. تابعت المشي، باتجاه المنعطف على الطريق. وقبل أن تبلغه، تناقصت حدّة الصوت. سمعت رجالاً ينادون بعضهم بعضاً، وبالنبرة التي لا تخطئها لكثرة ما سمعتها طوال حياتها، يصيحون على الحيوانات. سمعت أصوات

أسرجة الأحصنة والحيوانات، وأصوات عربات تجرها الثيران، وصوتاً آخر هو صوت خشب الأشجار الذي يرصف فوق بعضه.

ثمة ما يحدث هناك، ماما. أفلت جورج يد كاثلين وركض. صاحت كاثلين باسمه مرة واحدة لكنه كان قد اختفى خلف المنعطف. كان الثلج حينها ثقيلاً، ويتساقط من سماء بلون الصخور. أحكمت كاثلين لفّ شالها حول رأسها وعنقها. إنها تشعر بالبرد وبقرصةٍ عند أطراف أصابع قدميها، وبدأ أنفها يقطر.

تجاوزت كاثلين المنعطف، ملهوفة لإلقاء النظرة الأولى على ويست كوف، ككل مسافر آتٍ من الجنوب. كان المنعطف على رأس هضبة مشرفة على البلدة. البحيرة بعد البلدة، تمتد باتجاه الأفق، وفي الشتاء كانت تتحول إلى سهل أبيض شاسع لا تقاطعه سوى الرُقع المحدودبة وهي الجزر الأربع في الوسط. تساءلت كاثلين في سرّها ما إذا كانت الجزر ستظل مرئية في العاصفة؛ فهي لم تتوقع ذلك. لكن، بدلاً من أن ترى البلدة والبحيرة، رأت بيت الدكتور بوكس قابعاً في وسط الطريق، على ناقلات خشبية. البيت والناقلات مستوية على سرير من قطع الخشب، والتي رصفت على قواعد هي عبارة عن عوارض سميكة مفلطحة. كان البيت يُجرّ على قطع الخشب، تدريجياً، قدماً قدماً. وراح رجال يرتدون معاطف صوفية حمراء ويعتمرون قبعات مستديرة يحومون حول البيت، حاملين مطارق كبيرة وعتلات حديدية، وهم يصيحون لبعضهم بعضاً عند زواياه. وقفت خلف البيت شاحنة فيها ناقلة مستوية وعلى زواياها رافعات حديدية مهولة. وقف جورج على الطريق، في منتصف المسافة بين أمه والشاحنة، وعندما التفت إليها رآها تلوح له. وصلت إليه، وأمسكت بيده وسارا بجانب البيت، على جانب الطريق، تقريباً في القناة. تجاهلهما الرجال، وربما حيوا كاثلين بهزة رأس سريعة. كلما مال البيت إلى الأمام، كان يتقدم على القواعد الخشبية التي تدحرجت به أكثر صوب العوارض. فهمت كاثلين فوراً أن العملية بطيئة لدرجة تقارب الاستحالة، إذ لا يتزحزح البيت كل مرة سوى ستّ أو ثماني أقدام، قبل أن يضطر الرجال إلى رفعه بالرافعات الحديدية وإعادة رصف قطع الخشب من تحته ليعيدوا وضعه فوقها.

وفيما مشت الأم مع ابنها قرب الزاوية الأمامية من البيت، رأت أن البيت يُجرّ بواسطة ثمانية ثيران جبارة. قُيّدت معاً بتسلسل، ورُبطت بالبيت بواسطة سلاسل بعرض معصم كاثلين. وكان هناك رجل يهرول صعوداً ونزولاً، من أول الفريق إلى آخره ومعه سوط، وكان يشتم ويجلد البهائم على أردافها، فتزفر الثيران أبخرة لهاثها في البرد. وكلما صاح الرجل وأعمل سوطه، شمعت تموجات الخشب والجلد والحديد، إذ تشتد السلاسل الموثقة بالبيت، ويكافح كل زوج من الثيران ليشد ثقل البيت إنشاً أو اثنين. نوافذ البيت تَصِرّ، وإطاره يهتز، ثم يصيح الرجل حامل السوط: فلترتح الكلاب. وتقف البهائم الست عشرة وكأنها جزء من عرض في السيرك. كان الرجل هو إيزرا موريل، والد أعز أصدقاء جورج، راي موريل.

كان الدكتور بوكس يقف على جانب الطريق، ويتقدم قليلاً على مسيرة بيته وعمله. ملابسه كملابس الرجال الآخرين، باستثناء النوعية الأفضل لقبعته ونظارته. النظارة تبررها مهنته، فلا بد لطبيب البلدة من التمتع بأفضل رؤية يسعه الحصول عليها. أما القبعة، فهي تمثّل الرمز الوحيد لمركزه وانغماسه العلني الوحيد في ترف ما؛ الذي كان يسمح به لنفسه. اشتراها من متجر في لندن، حيث - كما يحب الدكتور بوكس أن يقول - كانت هناك نسخة خشبية تطابق حجم رأسه وشكله. وكل عام، كان ينتقي من هذه النسخة الخشبية قبعةً تتطابق والأصل. وفي بعض الأحيان، حين لا يجد سماعته الطبية أو مثبّت اللسان، يتفلسف قائلاً إن الرأسين قد اختلطا، حيث إن رأسه الحقيقي في لندن، بينما يحمل الرأس الخشبي فوق كتفيه. وفي ما عدا القبعات التي يغيّرها، فإنه كان يرتدي المعطف الصوفي المرقط نفسه، والبنطال الصوفي الداكن نفسه، وينتعل الجزمة الثقيلة عينها والتي يصل شريطها إلى ركبتيه تقريباً. راح يعضّ على غليونه، ليزيله من فمه بين الفينة والفينة قائلاً: هكذا يا شباب! آه! انتبهوا يا رفاق. الأم بوكس ستسلخ جلدي إن أصاب القلعة سوء!لما رأى كاثلين وجورج، استعرض خطوة مسرحية إلى الوراء وانحنى قليلاً ماسحاً بيده على الفضاء أمامه من أجل مرور كاثلين، ثم استقام بحركة خاطفة ليسلّم على جورج.

- امشي معنا يا سيدتي. امشِ معنا يا حضرة الضابط فنحن. ننقل البيت/العيادة ليصبح أقرب إلى الطريق!

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

قالت كاثلين الواقفة خلف جورج ويداها تستريحان على كتفيه: آسفة على المقاطعة يا دكتور. فالبارحة...

استلّ الدكتور بوكس غليونه من فمه وأظهر أسنانه الكبيرة المصفرّة قليلاً بطريقة المستمع المهني. لكن قبل أن تتمكن كاثلين من المتابعة، كان قد لمح يد جورج المضمّدة.

حسناً، أيها الجندي، لقد أصبت خلال أداء الواجب، فهمت. فلنلقِ نظرة.

دفعت كاثلين بجورج خطوة إلى الأمام وهو يمدّ يده بخجل ليأخذها الطبيب بين يديه.

لا تقلق يا حضرة الضابط، سأكون حذراً. جلس الدكتور بوكس القرفصاء وفك الضمادات. حين رأى العلامات، أدار يد جورج، باطنها وظاهرها مرتين، وصَفَر وقال: لقد نال منك كلب، أليس كذلك أيها الجندي؟ نظر جورج إلى أمه.

حسناً، لقد كان حادثاً. لم...

أخشى أنك ستحتاج إلى قطبة أو اثنتين للجروح البليغة، قال الطبيب. لا شيء مكسور، لكنها ستؤلمك لفترة غير قصيرة. لعلك ستشعر بالألم لوقت أطول بعد، ربما إلى أن تصبح رجلاً عجوزاً. لمن الكلب؟ لا بد من أن نفكّر في داء الكَلَب.

قالت كاثلين: هذا هو الموضوع، دكتور. هل يمكنني... هل يمكننا...؟نظر الطبيب إليها قائلاً. نعم، نعم، بالطبع سيدتي. أعاد لفّ يد جورج بالضمادات قائلاً: اسمع يا حضرة الضابط، علينا أن نتكلم أمك وأنا لدقيقة، فلنذهب بك إلى مكان دافئ. دان! داني!وضع الطبيب يده على ظهر جورج واصطحبه إلى الشاحنة المتوقفة. كانت نافذة السائق مفتوحة والرجل خلف المقود يميل برأسه إلى الخارج ويدخن سيجارة. تنبّه عندما ناداه الطبيب.

داني، ارفع النافذة ودع هذا الجندي يشعر ببعض الدفء عندك، لقد أصيب في المعركة!

زمّ الرجل، دان كوبر، شفتيه حول السيجارة، وجذب رأسه إلى داخل الشاحنة، ثمّ فتح بابها، ونزل منها قائلاً:

كلها لك يا دكتور.

اصعد. نعم، هكذا يا حضرة الضابط، قال الطبيب وهو يساعد جورج على بلوغ المقعد بجانب السائق. لن يطول بقاؤك هنا، سننهي حديثنا في غضون لحظات.

عمّ الدفء كابينة الشاحنة بسرعة. المقعد مغطى بجلد بني مشقق. شعر جورج بنابضات مكسورة في جوف الكرسي تحته بالرغم من ارتدائه المعطف. كتيبات قديمة، وصحف، وكوب قهوة لا تزال عليه بقايا قهوة تبخرت منذ زمن، ملأت المساحة بينه وبين مقعد السائق. راح الزجاج يغشوه بخار أنفاسه. وراقب جورج الرجال وهم يتحولون إلى أشباح في الضباب الفضي، وكذلك الأمر بالنسبة إلى الثيران والبيت المتحرّك. تذكر قصصاً كان يرويها له أبوه عن سفن أشباح اصطدمت بالصخور على الساحل وغرقت، قبل مئة عام، لكن أصوات طاقمها وشظايا السفينة مسطحة القعر ظلّت تُسمع في ليالي الضباب.

تحدثت كاثلين إلى الطبيب لعشر دقائق، وقبيل انتهائها، رأى جورج أمه تحني رأسها وتغطي وجهها بيديها. لم يكن قد رأى أمه تبكي من قبل، وقد عرف أن الموضوع يتعلق بأبيه وأنه جدّي. ضمّ الدكتور بوكس كاثلين إلى صدره بذراع واحدة، وربّت على ظهرها مرتين ثم أفلتها، وسار باتجاه الشاحنة. نظر جورج إلى أمه عبر الزجاج المغشّى. مسحت وجهها بكمّ معطفها وهزّت نفسها وكأنما لتسلخ عنها بكاءها مع الثلج، ثمّ رفعت وجهها إلى السماء للحظة. فتح الدكتور بوكس باب الشاحنة وحيّا جورج.

حسناً، حضرة الضابط، سنكمل الآن إلى البلدة، حيث يمكنني أن أعيد لك لياقتك القتالية.

ترجّل جورج من الشاحنة، وذهب إلى أمه التي كان وجهها متورداً وعيناها حمراوين، فابتسمت له وأمسكت بيده.

لا بأس جورجي، قالت. لاحظ جورج، للمرة الأولى، أن أمه لا تزال صبية. تشاور الدكتور بوكس مع دان كوبر الذي كان قد عاد إلى مقعده في الشاحنة مجدداً، ومع رجلين آخرين، ثم عاد إلى كاثلين وجورج.

الكتيبة جاهزة؟

قالت كاثلين: يبدو الأمر محزناً... بيتك، هنا، في وسط الطريق.وراحت تنتحب مجدداً.

آه! السيدة كروسبي المسكينة. هيا، هيا. علينا أن نفعل شيئاً. حان الوقت لنفعل شيئاً. سنهتم بكل شيء.

حطبت كاثلين الخشب مرتجفة، إذ كان هاورد لا يزال في جولته. جلست الفتاتان في الردهة، تشتغلان بالإبرة، وتراقبان جو الذي كان يجري حديثاً مع أورسولا، وهي سجادة من فرو الدب كان يعاملها كواحدة من الحيوانات الأليفة في البيت. أما جورج، فنام في الطابق العلوي، على سرير كاثلين وهاورد. الريح لا تزال عاتية، لكنها ستهدأ ما إن يحل الظلام، فكّرت. حفنات الثلج تأتي بها الريح أيضاً، لطيفة وحادّة. الشمس تغيب؛ تغرق بين شجرات الزان، فتضيء قممها، حتى تتحول أغصانها الوريدية العارية إلى شرايين سوداء حول أدمغة من نور. تهدّلت الأشجار تحت ثقل تلك الأعضاء المنيرة النامية في أعلى جذوعها الرشيقة. دمدمت الأدمغة في ما بينها تتشاور دائماً وتمتلك حكمة شتوية؛ القرمزي البارد والأذهان المتلألئة، مختصرة وصقيلة، متوهجة في زرقة الغسق المعدنية... ثم اختفت. تسرّب الضوء من السماء ومن بين الأشجار، وسار وكأنه يسير في قُمع إلى نقطة في الأفق الغربي، حيث بدا وكأن الأرض قد ابتلعته. أغصان الأشجار ظلمات فوق الظلمة الأخف للغسق، فكّرت كاثلين، هذا مثل مخ هاورد: يضاء ويستخدم كلّه ثم يظلم. منير أكثر من اللازم؟ كم من الضوء يحتاج الذهن؟ كم يستخدم؟ كغرفة مليئة بالمصابيح. كمخٍّ مليء بالضوء.ربّتت على جيب معطفها ساعيةً إلى تحسس الكتيب الخاص بالمستشفى العمومي لولاية شرق ماين في بانغور، ***على قمة هضبة هيباتيكا ويطل على نهر بينوبسكوت الجميل***. حينما أعطاها الدكتور بوكس الكتيب، تذكرت فوراً أن اسم

المستشفى في الأصل هو مستشفى المجانين في شرق ماين. لكن الصور التي في الكتيب تظهر غرفاً نظيفة، وحرَماً واسعاً مشمساً، ومبنى حجرياً هائلاً بأربعة أجنحة بدت لها كفندق فخم. بدت لها فكرة الفندق مُحبّبة لا قاسية. بدت لها - في الفناء الغريب فجأة - ملأى بالعقول المتوهجة المتسربة والمتلاشية. ملجأ دافئ وآمن تخيلته كمسافرة متعبة على كوكب جليدي، تخترق هضبة، وتلمح كوخاً كل نوافذه مضاءة، والدخان يتصاعد من مدفأته، والناس مجتمعون مع بعضهم، يترفون أنفسهم في الدّعة التي تشبه الحلم والمتأتية عن غرباء يتشاركون ملجأ. لم يكن الكتيب في أي من جيوب معطفها، وأدركت كاثلين أنها لا بد من أن تكون قد وضعته في مكان ما في غرفتها حينما كانت تساعد جورج على اعتلاء سريرها.

نام جورج على سرير أبويه. كان جسمه ملتفاً حول يده المعضوضة التي شُدّت الضمادات حولها. وفي نومه الخفيف رأى كلباً أسود يحمل يده هذه بين فكّيه. نظر الكلب إلى عيني جورج وعرف هذا الأخير أن الكلب سيعض يده لو حاول أن يسحبها من فمه. لم يتزحزح الكلب. لم يتعب ولم يشعر بالحاجة إلى الأكل أو النوم، وجعلته فكرة أنه لن يستطيع أن يتحرك بعد الآن، ولا يملك سوى أن يثبت في مكانه، ويده بين فكّي الكلب لبقية حياته يشعر بالرّعب حتى النخاع. انتابه الفزع، وكرد فعل، استل يده الأسيرة، فقفزت في وجهه أسنان الكلب كالفخ، وأطبقت على يده، فأجفله أوّل ضغط العضّة، وأيقظه مطلقاً نشيجاً ومنادياً أمه. كانت الغرفة الزرقاء باردة، والنوافذ معتمة لدرجة أنّ الضوء ما كان ليتطفل بل البرد بذاته يدخل بين جسده والسرير حيث المكان الدافئ الوحيد في الغرفة. ارتجف جورج وأنّ ثانية محاولاً أن يحفر جحراً داخل السرير، لكنه كان ينام فوق الأغطية ولا يستطيع أن يحظى بالدفء. آه! ماما، قال متأوهاً ورفع جذعه على كوعه ناظراً إلى يده المعضوضة. بدت الضمادات متلألئة، وكأنما آخر ضوء في الغرفة يصدر عنها. شعر جورج بالدم ينبض في راحة يده تحت الضمادات. آلمته يده، وأراد أن ينادي أمه مجدداً، لكنه سمع طرقات الفأس في الفناء. في العتمة والبرد، بدا أن أمه تحطّب صخراً لا خشباً، وجعلته آثار كابوسه عن الكلب يشعر فجأة أنه سيمضي بقية حياته شاعراً بالبرد وملقًى على الفراش مع يده المسحوقة، وهو يستمع إلى أمه التي تحاول أن تحطّب

صخرة بلا جدوى خارج النوافذ ذات الزجاج الجليدي الأسود، فيما كان أكثر ما هو بحاجة إليه هو أن يتكوّر في حضنها الدافئ، وينعم بيديها الدافئتين على وجهه، وصوتها الناعم الهادئ، كهديل الحمام، يطمئنه ويقول له إن كل شيء على ما يرام. غير أن جورج رفع جذعه وأنزل ساقيه عن حافة السرير. وقف ومدّ قدمه في العتمة الدامسة، متفحصاً الأرض، ومتوجساً من طرف السجادة أو حذاء متروك وسط الغرفة قد يتعثر به. وأخيراً تمكن من بلوغ الباب، رفع يده المعضوضة فوق رأسه، وكأنه يعبر نهراً، ومدّ يده السليمة في الظلام إلى أن تلمس زاوية منضدة أمه إلى يسار الباب. فتح الباب على ظلمة أشد حلكة. وبدلاً من أن يجازف بعبور الردهة والسلالم، مدّ أصابعه متحسساً سطح المنضدة إلى أن وجد المصباح. رفع غطاءه الزجاجي ووضعه جانباً، وراح يبحث عن علبة الكبريت. ظهر له الآن سطح المنضدة، وظهر انعكاس صورته على زجاج المصباح. كان هناك كتيب قرب المصباح، وعليه صورة مبنى بدا له كالمدرسة واسمه مستشفى شرق ولاية ماين. أدرك جورج أن هذا ما أعطاها إياه الدكتور بوكس بعدما أنهى تقطيب يده (لم تكن سوى أربع قطب ولم تؤلمه في البداية). تحت الصورة كُتب ***مركز العناية بالمجانين وأصحاب العقول الواهنة في شمال ماين وشرقها.*** لامس عود الكبريت فتيلة المصباح وانتشر الضوء داخل الغرفة وخارجها. غمر النور الأثاث والجدران والأرضية وعيني جورج وكأنه سائل. فتح الكتيب وبدأ يقرأ: ***يرتاح المرضى في المستشفى من جنون العالم الحديث الذي يؤزّم حالات الجنون. يتمتعون بجلسات العلاج بالماء، وفترات ممتدة من الراحة في السرير، ويحصدون المحاصيل، ويهتمون بتربية الحيوانات. ويتعلمون أيضاً صناعة الأثاث وتصليحه، ويقومون بغسل الملابس...***

لا عليك من ذلك، جورج. حان الوقت لتنزل وتتناول طعام عشائك. كانت كاثلين قد صعدت إلى الغرفة على غفلة مما جعل جورج يجفل عندما تكلمت، وفجأة آلمته رقبته وساقاه وذراعاه، كلها في اللحظة نفسها، وشعر بحرارته ترتفع. لاحظت كاثلين أنه أحرج نظراً إلى كونه قد ضُبط وهو يقرأ الكتيب وهو يعرف تماماً ما يعنيه، ولو أنه شيء لا يجدر به حتى أن يعرف بوجوده. وشعرت هي أيضاً، فجأة، بثقل النهار، وقد ألمّ بها البرد والجوع ونفاد الصبر.

إن منضدتي ليست لك لتعبث بأغراضها، قالت ذلك منتزعةً الكتيب من بين يديه وقادته خارج غرفتها باتجاه السلالم. اذهب وأعدّ أخاك للأكل، وقل لأختك أن تسكب لكل منكم كوباً من الحليب. هيا.

حاضر ماما. قاوم جورج رغبته في الانفجار باكياً، ونزل إلى الطابق السفلي. ثنت كاثلين الكتيب في وسطه ودسّته في فردة جوارب صوفية واضعةً إياها تحت كنزة في آخر الدرج الأخير.

في تلك الليلة، تناولت كاثلين طعام العشاء مع الأولاد من دون هاورد الذي لم يكن قد عاد بعد من جولاته بحلول الساعة السابعة. ثم راحت تخيط بنطالاً لجورج وهي جالسة على كرسيها الهزاز بالقرب من المدفأة. لعبت دارلا ومارجي بدميتين ادّعتا أنهما سوزان بي. أنتوني وبيتسي روس تعدّان الشاي لجورج واشنطن وأندرو جاكسون. قفزت سوزان بي. أنتوني من يد دارلا إلى بيتسي روس التي كانت جالسة إلى الطاولة، لتتأكد من جهوزيتها لحفلة الشاي.

جعلت دارلا سوزان بي. أنتوني تنحني لبيتسي روس قائلة: كل عام وأنت بخير، بيتسي!

أنهضت مارجي بيتسي روس عن مقعدها تهذيباً قائلةً: أتمنى أن يكون عام 1927 عاماً سعيداً بالنسبة إليك أنت أيضاً سيدة أنتوني!

قالت دارلا: لا، مارجي، إنه العام 1776.

جلس جورج على الأريكة، وهو يمسك بيده كتاب ***مارك صبي الكبريت*** مفتوحاً في حضنه، ويقلب صفحاته بيده المضمّدة، وفي يده الثانية تفاحة. كان يحدّق إلى الكلمات لكنه لا يقرأ؛ كان يفكر في أبيه الذي عضّه؛ المجنون الذي سيؤخذ إلى مستشفى المجانين. وخطر له فجأة أن أخاه جو سيرسل هو أيضاً إلى مستشفى المجانين، عاجلاً أم آجلاً.

منذ سنوات وسجادة فرو الدب، التي لا يعرف لها مصدراً، تفترش زاوية من الردهة. أحياناً، في الليالي الباردة، حينما تجتمع العائلة في الردهة، يفترشها الأولاد

متظاهرين بأنهم يركبون على ظهر دب في السيرك. كان هاورد قد أسمى السجادة أورسولا. كانت قطعة من الفرو الأشعث الأجرب، وفيها رقعة خالية من الفراء وممتدة من الأنف إلى ما بين محجري العينين اللذين إما نُزِعت منهما العينان الزجاجيتان أو تُرِكتا فارغتين بكل بساطة. في الشتاء الماضي، وضع جورج كِلَتين في المحجرين، واحدة خضراء حليبية فيها لمعة ذهبية، والثانية بلون أسود بركاني. العين السوداء جعلت الدب يبدو حياً، أما العين الخضراء الحليبية فجعلته يبدو نصف أعمى، أو أنه يراقب عالماً آخر بعين واحدة نظراً إلى أن اللمعة الذهبية في اللون الأخضر توحي بدوّامة من النجوم تدور حول نفسها في بؤبؤ العين. قضم جورج تفاحته وراح يراقب جو الذي كان يتظاهر بأنه يركب على ظهر دب ثم يتدحرج عنه وكأنه أوقعه عن ظهره.

توقف عن العبث جو، قالت كاثلين.

انتصب جو واقفاً، مبتسماً، وتوجه إلى جورج مشيراً إلى السجادة خلفه وقال: جورج، إن أورسولا تبدو وكأنها تعدّ نفسها لتعضني!

انتظر جورج حتى يوم السبت ليهرب. ساق الأمير إدوارد (البغل) إلى عربة والده وتوجه بها نحو الطريق، كان يحكم قبضته على اللجام ويسير بمحاذاة البغل هامساً له، وشادًا أزره ومهدّئاً إياه. ولما صار خارج مجال الرؤية من البيت، اعتلى العربة ضارباً اللجام قائلاً، هيا يا ولد! وتلك لم تكن طريقة والده الذي لم يكن يفعل شيئاً سوى هز اللجام الجلدي قليلاً مصدراً صوت طقطقة بلسانه، بل كانت طريقة والد راي موريل الذي يرطن بلهجة غريبة لم يسمع جورج مثلها من قبل ولن يفعل، وكان يبدو كمن خرج لتوه من الضباب الذي يفصل بينه وبين قرن ماضٍ محفوظ؛ أو ربما لا يكون محفوظاً لكنه حقيقي. كان لدى والد راي، إيزرا، ستة عشر ثوراً. وعندما يسوقها كان يقول: هيا! هيا يا صبيان! أو اشتغلي يا كلاب!

هكذا قال جورج: هيا يا ولد! وبالكاد شعر الأمير إدوارد باللكزة، وراح يمشي أبطأ من المعتاد، كأنما ليسجل معرفته بأن هذه لم تكن طريقه المعتادة، وهذا ليس سائسه المعتاد، ولا هذه لكزته المعتادة. الصباح المشمس في عطلة نهاية الأسبوع،

والبغل المتباطئ، والثقل الإضافي للعربة الذي يؤثر في سرعة المسير، كل هذه العوامل تآمرت لتخفف من أنصاف مفاهيم جورج عن السرعة والطيران والسعي والمراوغة. في ذهنه، خلال أيام المدرسة الماضية، كان يرى الأشجار تطير على جانبيه، وجذوعها تتوالى أمام ناظريه، والضوء يلمع ويختفي. رأى كلاب صيد تعوي وتزحف على جوانب أكمة قصب ونباتات على حافة الماء، وبعد مرورها تنفرج عيدان القصب ليظهر رأسه فوق الماء، متنبهاً، حاذاً، وحيوانياً تقريباً. والآن يمشي، إنشاً إنشاً، في وضح النهار، على عربة بحجم بيت تضجّ كحقيبة صنوج تركية. للمرة الأولى، تساءل عما في تلك الأدراج. وقد أدرك أنه كان قد ولّف فكرة ضبابية عن بضاعة العربة فهي تحتوي على فراشٍ، ومماسح، وقدور، وغلايين، وجوارب، وحاملات بناطيل، ومساحيق تلميع... صورة واحدة ظهرت في ذهنه كلما فكّر في العربة؛ كانت تخرج كإشارة مرورية، كلافتة أو إعلان، بسيطة وشاملة، وقد أيقن الآن أنها خاطفة ومشوشة أيضاً. أنعم النظر إلى جانب العربة، لكنه لم يستطع حتى تحديد نوع الخشب الذي صنعت منه هذه الأدراج.

حينما لاح له المنعطف المفضي إلى مزرعة صديقه راي موريل، انعطف جورج عنده بلا تفكير. كان قد بلغ كوخ التصليحات تقريباً، والذي تحول إلى مخزن عدّة، أو على الأصح، إلى كوخ للخردة التي ما عادت صالحة لشيء، ولكل قطعة مكسورة أو مهترئة أو ما عادت مفيدة لدرجة أنه حتى والد راي، المزارع الأكثر اقتصاداً في ريف مليء بالمزارعين المحرومين المقتصدين، لا يستطيع دق مسمار فيها أو ربطها أو ضربها بالمطرقة لتصبح صالحة للاستعمال ولو لمرة واحدة بعد. كان كوخ التصليحات عند آخر منعطف على الطريق الترابية المفضية من الطريق الرئيسة (وكانت ترابية أيضاً في هذه الناحية البعيدة من البلدة؛ وإنما ترابها مكبوس ومعتنى به) إلى آل موريل. كان جورج قد استدار عند المنعطفين بلا تفكير. كوخ التصليحات هو المكان الذي يجلس فيه مع راي، فيدخّنان ويلعبان الورق ويحكيان القصص والنكات بعد أن يكونا قد ساعدا والد راي على حلب البقرة أو كنس الفناء، أو غالباً على ربط الثور الكبير وإطعامه.

(كان راي موريل ابن اثني عشر عاماً، لكنه كان أقرب إلى روحية شاب عفيف

يصعب إرضاؤه. كان يعرف بشأن القطع النقدية الصادرة في ذكرى معينة، والرياح السائدة. وكان، في هذه السن المبكرة، قد تذوّق الشراب فعلاً، إذ يبقي والده قنينة تحت سلالم القبو. وبعد سنوات عديدة، وبالرغم من أنه كان لديه ما يكفي من المال ليشتري نوعية أفضل، إلا أن راي ظل يشتري أسوأ الأنواع التي يقع عليها إلى أن استسلم كبده المنتفخ. كان يسعده أن يفكر الناس في أن قدرته على تحمل هذا النوع من الشراب تعود إلى بنيته القوية وطفولته كمزارع فقير، في حين أنه كان يأنس لذكريات الشراب الرديء المهرّب والذي قد يخطئه المرء ويظنّ أنه مذيب الطلاء في كوخ التصليحات حيث تنغرس نِصال نور الشمس المغبرة في شقوق جدرانه الخشبية، وحيث يجلس ساعات العصر، بعد المدرسة، مع أعز أصدقائه في العالم جورج واشنطن كروسبي).

كان إيزرا معروفاً في البلاد باعتباره الرجل الذي تتصل به إن كنت تريد نقل شيء كبير. كان ذلك أيضاً مصدر نكات كثيرة. كتفا أصغر ثيرانه ترتفعان ست أقدام عن الأرض، وكتفا أكبرها تعلوان أكثر من سبع أقدام ونصف. الثيران هي أحد شغفين عنده، أما الشغف الثاني فهو البيسبول والذي يتابعه في الصحف كل أسبوع، فيحفظ كل النتائج عن ظهر قلب. وفيما هو يحرث الحقل أو يسوط فريقه من الثيران (والذي كان يؤجره كثنائيات، من ثورين إلى الكتيبة الكاملة المؤلفة من 16 ثوراً ودائماً تحت إشرافه شخصياً) كان يدمدم الأرقام لنفسه، وإذا سمعه أحد فما كان ليعتقد سوى أنه يستظهر أرقاماً عشوائية. كانت الإحصائيات الأكثر متعة بالنسبة إلى إيزرا هي تلك المتعلقة بمعدلات مضارب اللاعبين. وكلما اشترى ثوراً جديداً، أسماه على اسم آخر أبطال الضربات من الاتحاد الأميركي. حينما يضرب بالسوط، يُسمع وهو يضايق إيد ديليهانتي، وإيلمير فليك، وجورج ستون، وتريس سبيكر، وجورج سيسلر، وهاري هايلمان، وبايب روث، واحد من ثلاثة ثيران اسمها نابليون لاجوا، أو ستة منها اسمها تاي كوب (وهو يمتلك ثيراناً أكثر من ضاربي البيسبول، فإذا فرغت جعبته من الأسماء، كان يبدأ من الأول ويسمي الحيوانات بحسب السنوات التي فاز فيها أولئك اللاعبون). هيا، نابليون واحد، أيها الكلب، افعلها، يصرخ إيزرا. هذا ليس مجهود 22-4!وعلى عكس محبي الرياضة الآخرين، لم يكن إيزرا يستمتع بالتحدث

عن اللعبة مع أحد. وعندما تجرأ ابنه على سؤاله عن الأداء العادي للاعب العظيم كوب، قرص إيزرا أذن الصبي، وقال:كوب 3 العظيم راث فملأ مربطه مجذداً أيها الجرو الثرثار. والآن اذهب ونظفه قبل أن تتأخر عن موعد إطعام الثيران.

ربط جورج الأمير إدوارد إلى شجرة أمام الكوخ. بدا أن داخل الكوخ أكثر برودةً من خارجه. تدفق نور الشمس عبر الشقوق بين الألواح الخشبية التي تشكّل الجدران. كانت بعض ألواح السقف ناقصة. وقع الضوء المنساب من السقف على الأرض على شكل مستطيلات، تكسرها بعض العوارض الخشبية. كانت الخطافات لا تزال تتدلى من بعض العوارض. عشّ سنونوة مهجور في فجوة صغيرة في إحدى العوارض، وتلة صغيرة من الروث خلف العشّ.

وقف جورج في الكوخ، وأدرك فجأة أنه إن كان هارباً فعلاً، فليس هذا هو المكان الذي يجدر به أن يقصده. أن يهرب يعني أن يذهب بعيداً، وهو لم يذهب بعيداً من قبل. بعيداً مثل الثورة الفرنسية أو قلعة سمتِر أو الإمبراطورية الرومانية. بوسطن، ربما، على بعد ثلاثمئة ميل جنوباً. لم تكن لديه أدنى فكرة عما تتضمنه الأميال الثلاثمئة إلى بوسطن من حيث هو الآن.

فتش جورج في كومة الرماد وأعقاب السجائر قرب البرميل ذي المسامير الثلاثة والذي أعدّه هو وراي ليتسنى لهما الجلوس ووضع لوح لعبتهما المفضلة بينهما. وجد ربع سيجارة يستطيع تدخينها، وضعها بين شفتيه، لكنه لم يجد كبريتاً، فرماها ثانية على الكومة.

على آخر جدار في الكوخ كان هناك باب مسنود طوليًا. هذا من محل بادن الذي احترق منذ زمن. كأنه فيل ضخم، من خشب السنديان وبسماكة إنشين. مقبضه ومفصلاته مختفية. جانبه المواجه لداخل الكوخ متفحم ومخطط من أثر الحريق. عندما يجلس جورج مع راي لتدخين ما تيسر لهما؛ وغالباً ما تكون قشور الذرة الملفوفة أكثر من التنبك، وللّعب بالورق الذي سرقه جورج من بيته، كانا يحبان أن يسردا قصة شتاء العام 1906، حينما بلغت سماكة الثلج 12 قدماً، ولم تشرق الشمس طوال ثلاثة أشهر، وجُنّ بادن فأدخل الفأس إلى البيت وحطّم الأثاث كله

ثم جمع القطع في وسط الردهة وأغرقها بالكيروسين ثم أشعلها بعود ثقاب. آثار الفأس الباقية على الباب لم تكن من فعل بادن، بل من فعل رجال الإطفاء المتطوعين والجيران (والحق أنهم الأشخاص أنفسهم، إذ كان كلٌ منهم جاراً وإطفائياً متطوعاً، إذ إنك تكون إطفائياً إن سعيت إلى إطفاء النيران) وكانوا يحاولون الوصول إلى الداخل حيث السيدة بادن والأولاد. وحين أدركوا أن الباب سميك جداً حيث إنهم لن يتمكنوا من إطاحته بفأس، وأن عليهم الدخول من النافذة أو من باب خلفي، كانت النيران قد شبت في كل مكان، وما عاد في الإمكان القيام بشيء سوى القفز عن الشرفة. في اللحظة التي فهموا فيها ذلك، في اللحظة نفسها التي استوعبوا فيها جميعاً أن الباب غير قابل للكسر والتحطيم، انفجر شيء ما داخل البيت، واندفع الباب من مفصلاته طائراً باتجاه الخارج، وحارثاً الرجال من أمامه، حتى حطوا معه على الممر الخارجي، هم على الأرض والباب فوقهم والجانب المواجه لداخل الكوخ يحترق، ويتصاعد منه الدخان. إلا أن السبب الفعلي لسرد الحكاية واستعادتها كل مرة هو التالي: عندما أطفئ الحريق أخيراً، ووجدوا الجثث؛ جثة طوم بادن في المطبخ، وجثة أخرى لشخص بالغ - امرأة كما قيل - وجثتي طفلين، وكلها متكوّرة على بعضها بين حواشي الإطار الحديدي لسرير بادن المزدوج (وقد احترق الفراش، مع الشراشف والأغطية)، بدا أصحابها هادئين ومسالمين، كما لو أنهم في قيلولة العصر، لكنهم مشويون إلى حدّ التحمص، وافترض الجميع أنهم السيدة بادن والطفلان بادن، وراحت البلدة تستعد لإجراءات الجنازة، والسيد بوتر يقيس الجثث المتفحمة بأفضل ما يستطيع، كي يصنع التوابيت... غير أن السيدة بادن والطفلين أطلوا من ناحية ورسشتر حيث كانوا يزورون والدتها. ولم يعرف أحد من كانت تلك المرأة وذانك الطفلان معها، لم يعرف أحد هوية هؤلاء النائمين في بيت بادن عصر اليوم الذي فقد فيه طوم بادن عقله وأضرم النار.

زحف جورج إلى خلف الباب واستلقى. وضع يده المصابة على الخشب البارد وتخيله يشتعل ناراً، تخيّله يحبس ناراً هائلة دكّته وأذبلته وتنامت خلفه قبل أن تنتزعه وتقذفه بعيداً. النار ضاجّة ضجّة مكتومة في الجهة الأخرى من الباب. أنزل جورج يده إلى حضنه محاولاً تكويرها في قبضة لكنه لدى كل محاولة كان يشعر

بألم شديد. مرة جديدة، كان أول ما تمناه هو أن يختفي أبوه عن وجه الأرض - لا يريده أن يموت، ولا أن يُحبس بعيداً، وإنما يريد ألا يعود أبوه موجوداً بينهم - ثم تمنى لو أن أباه نفسه ولد، وعضّه أبوه، ليعاني فظاعة أن يهاجمه والده. تأرجحت مشاعر جورج بين هاتين الفكرتين طوال الأسبوع، باستثناء المرة التي رأى فيها أباه، ولو أن الأخير كان قد بقي بعيداً عن البيت معظم الوقت طوال بقية الأسبوع. وحين تواجد في البيت، التزم الزوايا والمساحات الموازية للجدران والمخبأة خلف الأبواب؛ كالكلب المضروب. كلما رأى جورج والده في البيت، كان عليه أن يمنع نفسه من البكاء غضباً لأن لديه أباً مجنوناً يحبه ويشفق عليه ويكرهه في الوقت نفسه. دس يده المصابة في جيب معطفه وغفا. كانت أبخرة أنفاسه تخرج من فمه كالغيوم الصغيرة، وتتصاعد كلفافات رقيقة، وتتكسر خلف الباب.

قالت كاثلين لهاورد: جورج هرب.

قال: كيف تعرفين؟

قالت: لقد ترك جو وحيداً في كوخ الخردة، ولم يحطب الخشب، ولم يحضر الماء، كما أنه لم يساعد دارلا. لقد أخذ الأمير إدوارد وعربتك أيضاً.

قال: لا أعتقد أنه سيبتعد كثيراً. ثمّ قال في سره: أرجو أن ينجح.

قالت: وماذا ستبيع اليوم من دون عربتك؟

قال: كاثلين!

قالت: لعلك تستعير اللايدي غودايفا من آل ليفانسيلر. لا يسعه أن يبتعد أكثر من ميلين.قال: كاثلين... لكنها كانت قد تحركت باتجاه البيت؛ إلى حوض الغسيل المليء بالماء الساخن والصابون والثياب.

á á á

.يبدو أن جورج قد هرب -

حقًا؟ -

- نعم.

- حسناً، لم أعتقد مرة...

- ولا أنا.

نظر الرجلان إلى السماء ثم إلى الفناء الموحل المزنّر بالثلج المتسخ، حيث تتبختر الدجاجات وهي تنقد الأرض. مطّ جاك ليفانسيلر شفتيه وزفر الهواء من فمه.

نظر هاورد باتجاه حظيرة آل ليفانسيلر، وكانت أشبه بمرأب قديم جُهّز ليكون إصطبلاً للفرس الهرمة التي اشتراها جاك ليفانسيلر لابنته، إميلي، حينما أصرّت على اقتناء حصان، وبكت كثيراً وصارت تقول أشياء عند تناول الطعام من نوع: لا *أريد* البطاطا، أريد *حصاناً*! وذلك طوال أسبوع كامل، حيث إنّ الأب ما عاد بعد ذلك قادراً على تحمّل الأداء المسرحي لابنة الاثني عشر عاماً، فقصد مزرعة الأحصنة في ديكستر واشترى أرخص مخلوق والأكثر تعباً واصفراراً بستة دولارات. حينما رأت الحصان، وأنفه المرتشح، وأذنيه الجرباوين وضلوعه المرئية كنتوءات البراميل، وحوضه أيضاً، صرخت: ما هذا؟! قال أبوها: هذا حصانك ويبدو أنه جائع ويشعر بالبرد أيضاً. وكان على حق. فبالرغم أن حزيران في أواخره والحرارة مرتفعة، كان الحصان يرتجف. صفع جاك الحصان على مؤخرته الكبيرة، وعندما لاحظ أن المخلوق فقد كمية كبيرة من شعره وأنه فرس قال: هذه فرسك واسمها اللايدي غودايفا. والآن، اذهبي وأحضري دلو ماء، وبعض التبن، وذلك الغطاء الأزرق القديم وابدئي بالاعتناء بفرسك الجديدة. صاحت إميلي: لا أريد هذا المخلوق المقرف! أراهنك أنني لا أستطيع حتى امتطاءه! ورفضت أن تكون لها أي علاقة بالبهيمة البائسة، فكان أن تولى الأب رعايتها منذ اللحظة التي أحضرها فيها إلى البيت، وراح يتذمر أمام كلّ من يقبل أن يسمعه قائلاً إنّه أنفق أكثر من ستة دولارات بكثير على هذا المخلوق، من وقت، وشوفان إلى أن يموت.

قال هاورد: اللايدي غودايفا.

قال جاك: مقابل دولار في اليوم.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قال هاورد: دولار.

قال جاك: إضافة إلى الشوفان.

- والشوفان.

نظر الرجلان إلى أيديهما، ثم إلى الدجاجات.

- حسناً، لعلني أمشي.

- لعلك تفعل.

- حسناً، شكراً جاك.

- لا عليك يا هاورد.

مشى هاورد متجاوزاً بيته، من دون أن يقول لكاثلين إن ليفانسيلر يريد دولاراً في اليوم مقابل استخدام اللايدي غودايفا، وأنه قرر أن يمشي. إذ إنها ستجبره على العودة، بالرغم من أن الدولار يساوي ضعف ما يجنيه هو في معظم الأيام بعد أن يدفع لكولن ثمن الفراشي ودبابيس الشعر مع الأرباح. مشى متجاوزاً البيت بنوافذه الأمامية المستطيلة، وطلائه الرمادي المتقشر، ومصراع النافذة المتعفن غير المدهون في عشّ من عشب الشتاء والثلج. كان الضوء في الخارج أقوى منه في الداخل، وعند مروره بمحاذاة البيت ظلّل عينيه ونظر إلى غرفة الطعام لكنه لم يرَ سوى الطاولة والكراسي الفارغة.

بعدما مرّ هاورد قرب موقع البيت، توقفت كاثلين عن الغسيل، وجفّفت يديها بمئزرها ودخلت البيت. صعدت السلالم إلى غرفة النوم على أطراف أصابعها، مع أنها غير مضطرة إلى إخفاء حقيقة أنها تتجه إلى غرفتها. فتحت الدرج السفلي في منضدتها التي كانت قرب الباب تماماً، ومدّت يدها كصنّارة صيد إلى آخر الدرج ساحبة فردة الجورب الصوفي التي خبأت فيها كتيّب مستشفى الأمراض العقلية. أخرجت الكتيّب من فردة الجورب، ومن دون أن تنظر إليه وضعته على زاوية المنضدة بشكل مرئي وواضح وعادت إلى غسيلها.

لم يصعب على هاورد إيجاد ابنه. فقد تبع آثار العربة والبغل، من الفناء إلى خارج البلدة. مشى هاورد على جانب الطريق وهو يتأمل أعشاب الشتاء الضارة والثلج الجديد. كانت أكثر تنوعاً مما لاحظ هاورد يوماً. بعضها كالأصداف المورقة، لها قرون وأشواك ونتوءات بيضاء. وبعضها الآخر منحنية الظهر، ورؤوسها مدفونة في الثلج وكأنما الصقيع قد هزمها. الشبكة المتداخلة من السيقان والأغصان والنباتات المتسلقة تذكّر بهياكل عظمية، وكأنها متحجّرات فصيلة منقرضة من المخلوقات الشبيهة بالحشرات. كل تلك العظام صبغتها أشعة الشمس والأرض باللون البني بعد أن كانت تنبض باللون الأبيض الحي، وليست الأزهار القوية ذات اللون الأخضر الخصب الذي كانت عليه فعلاً. تساءل هاورد عن رجل لم يرَ الصيف في حياته، رجل شتوي، وهو يتفحص الأعشاب ويستنتج أنه ينظر إلى مقبرة عظام. كان مثل هذا الرجل ليفكر مثله، فيظنها الحقيقة، ويبني أفكاره عن العالم على تلك الغلطة. كان ليلفّق قصصاً عن زمن كانت فيه الحيوانات ذات القرون تتنقل بين الأكمة وفي الحقول، ويخربش تخمينات عن شكل الأراضي، وينشر ورقات بحث، ثم يعقد ندوات في غرف مترفة أمام رجال جديين يرتدون جميعاً الثياب الرسمية ذاتها، ويخرج باستنتاجات ستكون كلها غير صحيحة. وفكّر هاورد في سره قائلاً: أنا لا أعرف حتى إن كانت هذه طحالب أم مطرزات الملكة آن.

لما بلغ منعطف مزرعة إيزرا موريل، رأى آثار العربة تنعطف عنده. كانت لحظة حزن وخيبة أمل وحب عميق تجاه ابنه، والذي تمنى له، في تلك الثانية، لو أنه حظي بمهرب حقيقي. لا يهم لماذا أو كيف أو مَن أو أي عواقب - من صحوة الحزن والأسى والاستياء التي تجرّها خلفك، الأرجح بسببي - أتمنى لو أنك نجحت وعبرت الحدود خلف قُطر هذه الدائرة الباردة... أتمنى، عندما ينزع علماء الآثار هذه الطبقة من عالمنا بعد مليون عام، ويضعون حبالاً حول غرفنا، وشروحات وأرقاماً على لوحات، وقرب كل عظمة لوحة، ألا تكون هنا. لن يجدوا لك أثراً يكتبون قربه: "صبي ارتكب جُنحة". ستكون سراً، ولن يتمكنوا يوماً من حل لغز وجودك. وطفت في ذهن هاورد صورة عالم آثار يتفحّص العظام الصغيرة ليد جورج ويشرح لزملائه أن الصبي صاحب تلك العظام قد عضّه شخص آخر، راشد، ربما كجزء من طقس متوحش، لأن

الناس كانوا أقرب إلى الحيوانات البرية في ذلك المكان والزمان، أكثر مما نتخيل.

دخل هاورد الكوخ وقد تسلل الضوء إلى المعلف الخشبي حيث نبت العشب على الوحل، وحيث جرائد يوم الأحد ملقاة وقد تحلّلت صفحات الكاريكاتور.

- جورج، أين أنت؟

- أنا هنا، بابا.

- أين؟

- هنا.

وزحف جورج من خلف الباب. تأقلمت عينا هاورد مع داخل الكوخ المعتم حتى استطاع أن يميّز وجه جورج المطلّ من خلف الباب القديم. تذكر الحريق، وتذكّر قصة المرأة والطفلين. فكّر: ابني يختبئ خلف الأطلال، ابني يختبئ خلف آخر قطعة من بيت. قد تصبح البيوت أشباحاً أيضاً، كالناس. وعندما فكّر في ذلك كان السبب تخيّله تلك المرأة وطفليها الذين كانوا دائماً في البيت. (وأنا مسكون أيضاً، فكّر، فهكذا تكون الأشباح، هذا ما تفعله، إن أوقعت الصحون عن الرفوف، أو نفخت على باب فانفتح في الليل، أو إن ظهرت في أذهاننا ببساطة، فكلها أشباح)، المرأة وطفلاها كانوا دائماً يظهرون له في ذلك البيت، والذي أزيل عن وجه الأرض مثلهم تماماً. وكنا - كالرجال الذين يقرأون أبحاثاً عن الهياكل العظمية على ضفاف قناة الري - واثقين أن العظام تعود لآدي بادن والطفلين، لكنها لم تكن كذلك. وها هو ابني، يختبئ خلف الأثر الباقي من بيت تفحّم واستحال رماداً في الذاكرة البالية لمن لا يزال يتذكر. وإذا عاش الباب أكثر منا جميعاً، فسيكون، كمعظم الأشياء، مجرد رفات ملقاة (في مكان ما، غير هنا، مكان غير متوقع، بين حشائش السهول، في جزيرة بمستنقع، في قلب شق جليدي عميق في القطب الشمالي مع أدوات أخرى ربما، بل إنها أدوات لم تصنع بعد، وإنما هي في طور الصنع... أو لعلها تُصمّم، وتتكيف بمعنى أنها كانت دائماً كامنة في الخشب الحي، في الحواشي تحت الأرض، في النجوم والسماء السوداء). كل شيء موجود ليفنى، الغريب أن يوجد شيء لم يفنَ بعد. كلا،

فكّر في سرّه. الغريب في أي شيء هو أنه وُجد في الأصل. ما الذي يعاند في كارثة الصنع والتراجع عن الصنع؟

إذاً، ها هو ابني، يفنى منذ الآن. أخافته الفكرة لأنها ما إن راودته حتى عرف أنها الحقيقة. فهم فجأة أنه - وبالرغم من أن الفتى راكع أمامه، مألوف ودنيوي - كان قد بدأ يتلاشى فعلاً، ويتقهقر. كان ابنه يتلاشى أمام عينيه، والحقيقة لا مفر منها، علماً أن هاورد فهم أيضاً أن التلاشي سيبدأ ولم يبدأ بعد. وأنه في هذه اللحظة هو وابنه - الأب يقف في الجانب المعتم، والابن راكع ونصف محتجب خلف الباب المتفخم - كانا لا يزالان يتجهان، ولم يصلا بعد، إلى النقطة حيث يبدأ التلاشي. عرف هاورد ببساطة أن هذه اللحظة آتية لا محالة، وأنه - بأعجوبة ما - رأى لمحة مسبقة عنها، وكأنما اللحظة كالباب المحترق؛ شيء يجلس في كوخ، متكئاً على منشار قديم صدئ أو رفش أو شوكة تقليب التربة، لكنها أيضاً عصية على التخيّل والمعرفة كالمخلوقات المنقرضة ذات العظام العشبية.

- أمك قلقة يا جورج. عليك أن تعود.

- أعلم يا بابا.

وقف جورج ومشى نحو أبيه. وضع هاورد يده على كتف ابنه للحظة، ونظر إلى عينيه. بدا أنه سيتكلم لكنه ابتسم ورفع يده. صعد جورج إلى العربة، وفك هاورد وثاق الأمير إدوارد. تجاوب البغل أكثر بكثير بقيادة هاورد، وأخذت العربة الأب والابن الصامتين إلى البيت.

في المساء التالي، كان هاورد قد تجاوز بيته عندما أدرك أنه كان قد رأى كتيباً عن مكان يدعى مستشفى شرق ماين الحكومي على منضدة زوجته، وأنها تنوي أن تلزمه بالبقاء هناك. توجه من ساحة البلدة جنوباً. كان العشاء على طاولة الطعام في البيت، والجميع جلسوا على كراسيهم، ولم ينبس أحد منهم بكلمة في انتظار عودته عبر المدخل الخارجي الموحل بعد أن يربط الأمير إدوارد ويعطيه تبنه، ثم يدخل ويتلو دعاءه الذي يختتمه دائماً بعبارة: اللّهم اجعلنا نفهم أن لا شيء أفضل من رجل يبتهج بعمله. آمين.

لم يكن مستحيلاً بالنسبة إلى هاورد أن يُمضي النهار بكامله مفكّراً في ترك عائلته؛ وفي ما ينتج عن ذلك. وفي النهاية، استقرّ رأيه على تركها. وكان هذا الأمر صعباً جدًا بالنسبة إليه، غير أنّه كان مصرًا على المضي فيه. لذا، لم يفكر في الأمر مجدّداً، بل قرّر أنّه جاهزٌ لتنفيذه؛ فمن المستحيل بالنسبة إليه العودة إلى المنزل ومشاهدة زوجته وهي تمرّر له صحن الدجاج أو سلّة الخبز الساخن وتكون، في الوقت نفسه، تخطط لإرساله بعيداً. كان هاورد قد افترض أن صمتهما عن نوباته، وعن كل شيء، يمثّل امتنانه لها وولاءها له. كان قد افترض أن صمتهما هو الحنان المُعطى من أحدهما إلى الآخر الذي يقبله.

طالت المسافة بين هاورد وبيته، وفيما راحت تطول أكثر كانت تفصله عن حياته التي باتت وكأنها الوقت. رائحة زيت الخشب والكيروسين، المتسللة من العربة، جعلته يفكر في السلالم والغرف التي عرف أنه لن يدخلها مجدّداً، وأدرك أن ما يجلس عليه الآن - العربة المتمايلة الملأى بمستحضرات التنظيف والفرك والرتق والتنظيم لاستمرارية الحياة المنزلية - هو بيت بالفعل. أنا جاثم على مقعد الحوذيّ، دعا في سرّه: اللهم اجعلنا نفهم أن لا شيء أفضل من رجل يبتهج بعمله. يا الله، اسمعني وأنا أبكي لأنني تركت نفسي أظن أن كل شيء سيكون على ما يرام طالما أنني أحمل البضاعة الكافية من طلاء الأحذية البرّاق، وشمع النحل للطاولات الخشبية، وإسفنجة البحر للصحون المتسخة. يا الله، اسمعني وأنا أبكي فيما أملأ إيصالات دلاء التنك، وأدس الشراب المهرّب في جيوب المعاطف من أجل الحصول على المال، وأخبر الناس عن ابنيّ فائقي الذكاء وابنتي الجميلتين. اعرف يا الله عاري، وأنا أُضني بغلي ولا أزال أرهقه، حتى بعدما طلع القمر والزُهرة ليشرفا على البوم والفئران، فأنا لن أعود إلى عائلتي - زوجتي، أولادي - لأن صمت زوجتي ليس صبر الناس النزهاء والصارمين الذين يخشونك، بل هو صمت الحنق واليأس. إنه صمت من يتحين الفرصة. سامحني يا الله. أنا راحل.

ذاب الثلج باكراً، في كانون الثاني، وكانت السماء تمطر طوال النهار، لكن قبل غروب الشمس بقليل، مرّت غيوم العاصفة ولم تعد تمطر إلا على الأشجار. ذوّب

البخار الثلج. انتصبت الأشجار، نصفها في الشمس ونصفها الآخر في الظل، فيما انخفضت الشمس وسطرت نسيج العالم، نصفه منها ونصفه الثاني من المساء الوشيك. صار التعامل مع البغل صعباً، فقد حاول الاستدارة والعودة مرات عديدة. وفي مرّات أخرى توقف ورفض التقدم خطوة واحدة. أخيراً، استسلم هاورد وتوقف لتمضية الليلة على بعد عشرين ميلاً مما أصبح بيته السابق. انحرف عن الطريق عند فسحة في الغابة حيث كان الثلج قد ذاب تماماً، وكانت هناك دائرة من العشب واسعة بشكل كافٍ لركن العربة. فكّ لجام الأمير إدوارد وأطعمه، ثم تناول الغداء الذي ادّخره عصر ذلك اليوم. فبالرغم من أنه لم يكن قد سمح لنفسه بالتفكير في هروبه، فقد كان جزء منه يدرك أن عليه الاحتفاظ بشطيرة اللحم والبطاطا الباردة.

انحنى هاورد عند إحدى عجلات العربة وحدّق إلى السماء ونجومها، ثم عاد ونظر إلى الشمعة التي أشعلها، وتمنى لو أن ضوءها ينقلب أزرق مع أضواء النجوم، ولو أن النجوم تصبح ذهبية كالفتائل المحترقة. تساءل إن كانت كاثلين والأولاد لا يزالون جالسين إلى طاولة الطعام أمام طعامهم البارد.

إذاً، ماذا سيحصل لو استطاع أن يحضر لهم خيول السيرك وفساتين حريرية؟ تخيل هاورد أن تلك الأشياء لن تجلب السلام إلى قلب زوجته. إن ورعها يعتمد كثيراً على وضعية الصبر، وعلى ملامح القمع. الشرائط الحمراء يمكنها أن تصبح رماداً في الفرن. وكونها تتعمد أكل تلك الأجزاء من الدجاجة التي تحتوي أقل كمية من اللحم، أو الكعكة المحترقة، أو البطاطا الأكثر هرساً، وهي تتذمر من أن أولاده ضعاف العقول، وهستيريون، أو يمرضون بسرعة - وهي بذلك تلمّح إلى أن هذه البلوى سببها غياب قطعة لحم أو غطاء رأس جديد - ربما كان مجرد صدفة. لكنها لو جلست على عرش، إلى مائدة يُوضَع عليها اثنا عشر صنفاً من الطعام تباعاً، قوامه كل مخلوقات الله الطائرة والراعية في الحقول، موثقة ومحمّرة وتسبح في مرقتها، فستكوّم الطعام في صحنها مختارة أطيب الزاد، وستشكو من أولاده الضعفاء الذين أصبحوا على هذه الحال بسبب رغد الحياة، معتبرة أنهم بحاجة إلى تذوق العصيدة الباردة وسلطانية الحساء المترب.

فكّر هاورد: هذا ليس صحيحاً؟ هزة رأس، خطوة إلى اليمين أو إلى اليسار، ونتغير من كوننا أشخاصاً حكماء، صارمين وأوفياء، إلى مغرورين حمقى؟ إذ إنّ تغييرات خفيفة ترمش عيوننا، فنرى العالم من زاوية مختلفة قليلاً وقد تغير موقعنا فيها جذرياً: الشمس تلتقط تشققات الصحون الرخيصة... أنا المصلّحاتي متعدد الكارات. القمر بيضة تتوهج في عشّ أشجاره العارية من الأوراق... إذاً، أنا شاعر. كتيب المصحّ على طاولة غرفة النوم... إذاً أنا المصاب بالصَرَع، مجنون. البيت خلفي الآن... أنا الهارب. لم يأتِ يأسه من حقيقة أنه أحمق، فقد كان يعلم أنه أحمق. كان يأسه نابعاً من فكرة أن زوجته تراه أحمق؛ مجرّد مصلّحاتي لا فائدة ترتجى منه، ينسخ مقتطفاً من مجلات دينية ببنسين، ومصاباً بالصَرَع، ولم تجد سبباً كي تدير رأسها وتراه بطريقة أفضل.

نام على العشب تحت العربة. طلع القمر وتقوّس فوق هيئته المضطجعة. لعب الليل لعبته فيما راح يحلم بغرف فارغة وردهات مهجورة. ظهر قطيع ذئاب صغير من خلف الهضاب، التفّ على الفور حول عربته، وبدأ يشتمّ المكان ثمّ رحل كما أتى. استفاق مرة واحدة قبل الفجر معتقداً أنه رأى أضواء تخترق الشجر، إلا أن ريحاً خفيفة نفخت في العشب فانتصب، وفي الأغصان ففرقت الأضواء، فأغمض عينيه مجدداً.

استيقظ حين شعر أنّ الأمير إدوارد يشتمّ العشب قرب رأسه. تناول قبعته قبل أن يقضمها البغل، كما فعل ذات مرة ومرض تاركاً صاحبه وراءه بعينين دامعتين من وهج الشمس التي حرقت أنفه أيضاً. كان الوقت مبكراً جداً، والعشب الذي افترشه تحت العربة لا يزال أزرق ورمادياً وبنفسجياً، وكان السكون يعمّ المكان وكأن العصافير قد باعت زقزقتها. خارج ظلال العربة، كان الثلج أزرق، وتجمدت مياه الأمطار على الشجر خلال الليل وتحولت إلى قِرَب جليد عكست النور الذهبي للشمس التي بدأت تشرق لتوها وجعلته فضياً يتلألأ في النسيم. بدا أن محصولاً كاملاً من الفطر قد نما خلال الليل، بين الأعشاب، قرب هاورد، تحت العربة. تفحّص حبّات الفطر وهاله حجمها، وكم كبرت في فترة قصيرة، وفي هذا البرد.

3

لم يخطر لهاورد من قبل أن يخبر جورج عن أبيه. فكر هاورد في سرّه: هذا صحيح، كان أبي دائماً في الغرفة العلوية، جالساً إلى مكتب من خشب الجوز، يؤلف. وكان متواجداً أيضاً عند تناول العشاء، وفيما أنجز دروسي. كان يعلّق على الموضوع أحياناً قائلاً: كم هذا غريب! فأنا آكل البازيلاء هنا، وهناك أيضاً أنقّح عظتي الدينية. لم نكن نقول شيئاً، لكن قشعريرة كانت تسري في جسدي لدى تفكيري في الابتعاد عن الطاولة، من حيث أجلس إلى يسار أبي، وفي المرور في الممر الضيق غير المزيّن بشيء، ثم السلالم الضيقة وهي الطريق الوحيدة إلى الطابق الثاني؛ إلى المكتبة، لأرى أبي منكباً على عمله. أحياناً كنت أمضي طيلة وقت العشاء وأنا أتخيل نفسي عالقاً في لولب ما، فأتنقل، إلى ما لا نهاية، بين أبي الجالس إلى مكتبه وأبي الجالس إلى طاولة العشاء، ولطالما حيرتني قدرته على التواجد في مكانين معاً ومحدوديتي في مكان واحد فقط. كان أبي رجلاً غريباً ولطيفاً.

تأتي الريح من بين الأشجار، ولها صوت كالجوقة، أشبه بالنَفَس، أشبه كثيراً بالنَفَس، أنفاس آلاف الأشخاص الذين يجمعون بعضهم في مكان ما بين خطوط الخشب، وتحدد الاستدارات والمنخفضات خلف الجبال، كما تفعل العواصف الرعدية التي لا يسعك أن تسمعها لكنك تشعر بها بمقياس الضغط الجوي؛ الانقباض أو الانبطاح، مثل نبرة، مثل كل شيء مضغوط أمامها، ومجدداً لا يمكنك أن تراها، ليس تماماً، لكنك تكاد ترى نتيجتها؛ فالمياه تُسوّى، ويغيّر الضوء الخارج منها زواياه، والعشب يتصلّب ويتغير من الأخضر إلى الفضي، والسنونوات تطير متنقلة من نقطة إلى نقطة فوق البركة، كلها تندفع إلى الأمام ثم تعود لتسقط في أماكنها الأصلية فيما هي تصحح التغيير، وكأنما الريح ترسل شيئاً أمامها. الشَعر على رقبتي انتصب بدءاً من قفا عنقي إلى قمة رأسي، وكأن تياراً ما مرّ به، وإذا قفز التيار عن قمة رأسي، وكان ظهري للأشجار، فسأشعر بالريح تبدأ من أسفل رقبتي وتتغلغل في شعري وفي الماء والعشب، ثم تستدير السنونوات في صوت جوقتها محرّكة كل الأحزان التي لا أسماء لها في حلوقنا، حيث تلتقط أصواتنا أغنيات قديمة منسية

وتفشل. كان أبي يقول إن الأغنيات المنسيّة هي التي لم نعرفها فعلاً، فنحن نظنّ أننا نتذكّر معرفتنا إيّاها، في حين أن ما نفعله في الواقع في الوقت ذاته هو أننا نفهم كيف لم نعرفها يوماً وكم كانت مجيدة، بلا شك. كان أبي يقول لي ذلك من حيث يجلس إلى مكتبه في الغرفة العلوية، فيما أنا في الجهة الأخرى من البركة، أتتبع كلاب البحر، أو أصطاد شجرة التنوب التي وقعت في الماء. سمعت صوته، ونظرت من فوق الماء إلى بياض منزلنا المرئي من خلف صف أشجار، حيث أعلم أن نافذته المفتوحة تشهق وتزفر الستائر البيضاء التي أصرّت أمي على وضعها بحجّة الحد الأدنى من اللياقة المنزلية. همس في أذني: أحضر الخيط وأغطية القناني والزجاج المكسور، أحضر أغلفة الحلوى، والعملات المعدنية، والأحجار الملساء، أحضر الريش المتساقط والأظفار المقلّمة، هزّت الأغنيات القديمة بيتنا فهدمته مجدداً وعلينا أن نعيد البناء. وبيتنا على الجهة الأخرى من البحيرة سيرفرف، وسيرمش، ثم سيختفي، لأنه كان فكرة هشّة منذ البداية. عندها، سأكون مرة ثانية على الشاطئ البعيد، أنظر إلى حيث سنبني بيتنا ما إن نُبيد الغابة ونحفر الأسس.

كيف لي ألاّ أتساءل عمّا سيكون عليه الجلوس في تلك المياه الفضية الباردة؟ تلك المياه الباردة تبلغ ذقني، وأعشاب المستنقع المتداخلة تصل إلى مستوى عيني، وتتوضع في المياه الراكدة، وفي الهواء الراكد. والنهار المشمس من خلفي يضيء وجه كلّ شيء تحت غطاء غيمة حجر الرحى الداكنة أمامي، وأنا أرى العاصفة آتية من الشمال؟ ها هو أبي يهمس في أذني: ابق ساكناً، ساكناً، ساكناً. ومع ذلك أنت تغير كل شيء. كيف كانت أعشاب المستنقع، في انتظار العاصفة، قبل أن تأتي أنت وتركع في الماء؟ كانت مثل لا شيء. شاهد كيف، بعد أن تغادر الماء، الآن شاعراً بالبرد والندم، على بعد أميال من البيت، متأكداً من الحزام على ظهرك، والكتف الباردة، والأعمال الإضافية، راقب. انظر إلى الماء وهو يشفي نفسه من حضورك... ليس لمداواة جرح، وإنما ليهب نفسه مجدداً إن خطرت لك مجازفة أخرى، لأنه بدلاً من السماء الداكنة والأشجار والحجارة الواهية، في المرة المقبلة، ستكون السماء مضاءة فيما العالم سيكون مظلماً كئيباً، أو سيكون هناك مطر بلا ريح، أو ريح مع شمس، أو سماء مرصّعة بالنجوم، ومطرّزة بالغيوم التي تشبه خيطاً قطنيًا. لن تقوم بما هو

أفضل، وإن أقررت ألف قرار في الكونغرس.

أيها السيناتور، أنزل بنطالك! أرخِ ربطة عنقك! تحاشَ مشاحناتك، واخطُ إلى العالم الضحل، المحتشد بذباب أيار واليعاسيب وعيون الضفادع التي تلمع كالنجوم، والقعر المكسو بالطمي. أوقف تلك الخطبة الطويلة الجوفاء ضد العالم الذي وهبك الله إياه. كفاك جلبة، وميولاً محرجةً، وسلوك طرقات متعرجة باسم الاستقامة. كفاك حديثاً على أطلال المور والهندوس والزولو والهان. لا شيء من ذلك يفيدك ولو بمثقال ذرة. انظر، وكُن عبقرياً! بنفَس واحد سأبعثر عالمك، ونصبك المعدنية والحجرية، وسجاداتك الزاهية المخطّطة. ستتعثر كالقوارير الخشبية في لعبة البولينغ. وسأتعب نفسي أكثر فأخمد شمعة في حاملتها الدارية. أفّ! هاك: لقد أزلتُ.

عليّ أن أقول إن العظات، التي ألقاها أبي أيام الآحاد، كانت بلا طعم ومبهمة. كان أبناء الأبرشية ينساقون دائماً إلى النوم وهم جالسون على مقاعد دار العبادة، وكان مألوفاً سماع الشخير المنبعث من هذه الزاوية أو تلك. أما صوت أبي فيستمر في دمدمةٍ عن أهمية كل مخلوق صغير في الحقل، معدداً، عملياً، كل مخلوق زاحف أو سابح أو طائر في استطاعته ذكره، ويؤكد أنه أيضاً بأهمية أي من مخلوقات الله الأخرى. فكّر في الجرذان، في محصول الحبوب، كان يقول، والغربان الناعقة، والسناجب جامعة البندق. أليست هي أيضاً من مخلوقات الله؟ والجرذ الأميركي النهاب.

ما كانت هناك علاقة بين تلك العظات العقيمة وكتاباته الشغوفة، بل المهووسة، التي كان يكتبها تحت السقف المائل. في الواقع، كلما طال الوقت الذي أمضاه أبي في المكتبة مؤلفاً، ازدادت عظاته سوءاً حتى أصبحت مجرد تمتمة مفككة، وبين سطورها - هنا وهناك، إن أفلحت في الإصغاء مطولاً - لعلك تلتقط اسماً دخيلاً أو استشهاداً بأنشودة دينية أو نصًا إنجيليًا. ما كان لأهالي البلدة صبر على الهمهمة، وسرعان ما ضاقوا ذرعاً وراحوا يتذمرون؛ أولاً عبر رسائل مكتومة، ثم في وجه أبي مباشرة في أثناء الخروج من دار العبادة. فوجئ أبي فعلاً بهذا النقد، وكأنما صدم لأن ما كان في باله فعلاً لم تتضمنه عظته. يا الله! سيدة غرينليف، كان يقول، أنا

آسف جداً لأنك لم تحبي العظة. الطريق ضيّقة، ولا بدّ من أنني شردت، كان يقول وهو يبدو حائراً. كانت تلك الإشارة الأولى إلى أنه بدأ ينفصل عن عالمنا وينحرف مبتعداً.

أخيراً، دقّ جرس الإنذار بين الرعية (احتفال ديني في يوم أحد مربك، عندما ذكر أبي شيئاً عن الشيطان بمعنى أنه ليس بذلك السوء)، وطالب أبناء الأبرشية باجتماع خاص لتناول الحالة المتردية لكاهنهم. وصباح الأربعاء الذي كان من المفترض أن يشهد اجتماعه بالشمّاس والرعية، اضطرت أمي إلى إلباسه ثيابه بنفسها. كان شاحباً وغير حليق وبدا مثل طفل. رأته أمي وبكت: ماذا تفعل؟ علينا الذهاب إلى دار العبادة من أجل اجتماعك. يا الله! يا الله! وفي أثناء فترة تدهور أبي، احتفظت أمي بأفكارها لنفسها. طبخت وكوّت ودبّرت منزله ولعلها كانت واثقة في البداية أن أبي يعاني خطباً ما، وأن عظاته الضعيفة والوقت الإضافي الذي يستغرقه عمله عليها، لا بدّ من أنها جزء من مدّ وجزر طبيعي في حياة أي كاهن. بل لعلها وثقت بأنه يمرّ بأزمة صحية وسيخرج منها بقناعات أقوى من ذي قبل. ومهما فكّرت، فلم تكن تعبّر عن أفكارها بكلمة.

حينما نجحت أمي أخيراً في حلق لحية أبي وإلباسه ثيابه وإيصاله إلى دار العبادة، أمرتني ألا أذهب إلى المدرسة في ذلك اليوم وأن أبقى في البيت لأهتم بشؤونه وأكون في انتظار عودتهما. بعد ذهابهما، جلستُ إلى طاولة المطبخ وكتاب التاريخ مفتوح على الفصل الذي كنت أدرسه عن نابليون. في الكتاب صورة تظهره على حصان أبيض، وفي أخرى كان يقود معركة وسيفه مستلّ وموجّه إلى عدو غير مرئي. لم أستطع التركيز على النص؛ قلقت على أبي. طوال مدة مرضه (هذه هي الكلمة التي خطرت في بالي الآن، وللمرة الأولى، فصدمتني وأخافتني)، ظلّ لطيفاً وبعيداً عنّي، كما كان دائماً، لكنني لاحظت مؤخراً أنه ينظر إليّ بشيء من الكآبة، كأنه لم يكن ينظر إليّ، بل إلى لوحة أو صورة لي، وكأنه يتذكرني.

بدا لي أن أبي يتلاشى من أمامي. وكأنما رؤيته صارت أصعب فأصعب. ذات يوم، ظننته جالساً على كرسيه، أمام طاولته، يكتب. من الواضح أنه كان يخربش على

ورقة. ولما سألته عن مكان كيس التفاح، اختفى. لست متأكداً إن كان جالساً على كرسيه أصلاً، أو إن كنت قد طرحت السؤال على بقايا صورة متباطئة في الرحيل. راح ينسلّ من العالم تدريجياً. في البداية، بدا مبهماً أو هامشياً. ثم ما عاد يملأ المساحة اللازمة لثيابه. قد يطرح عليّ سؤالاً من خلف الصندوق الذي أجلس عليه وأنا أقشر البازيلاء أو البطاطا لأمي، وحين أجيبه لا أتلقى ردّه، أستدير لأجد قبعته أو حزامه أو حذاءه عند الباب وكأنما تركها ولد شقي. وجاءت النهاية، عندما لم نعد قادرين حتى على رؤيته، بل شعرنا بحضوره ضمن اضطرابات قصيرة في الظلال أو الضوء، أو كضغط خفيف، وكأنما الفضاء الذي يحتله المرء يصبح أكثر كثافة فجأة بفعل إضافة ما، كالثلج الذي يذوب في صوف معطفه الشتوي، إنما في قيظ ظهر يوم من شهر آب، وكأنما المرات القليلة الأخيرة التي شعرت به فيها ككائن آخر بدلاً من أن يكون ذكرى، كانت حين فكّر في إلقاء نظرة على عالمه في اللحظة غير المناسبة، وخطا مصادفةً خارج المكان الشتوي الذي يقطنه. وبدا أن ذلك أكّد له قدره بالاختفاء تدريجياً، وبأنه في المكان غير الصحيح، وأنه خلال زياراته المجفلة، بالرغم من أنني لم أكن أراه، إلاّ أنني كنت أستشعر مفاجأته، وحيرته، والرعب الذي يأتيك في الكابوس عندما تلتقي فجأة شقيقاً كنت قد نسيت أمره، أو عندما تتذكر الطفل الرضيع الذي تركته قرب التلّة على بعد أميال لساعات، لأنك - بطريقة ما - تلهيت. وصدمَتك بتلك الذكرى، تلك اللقاءات المفاجئة، تنبع من حزنك على ما أهملته، كما تأتي من فزعك إزاء ثقتك السريعة بشيء آخر. وذلك العالم الآخر الذي حلمت به هو دائماً أفضل إن لم يتحقق، لأنك، في ذلك العالم، تخليت عن حبيبك، وعن ولدك، وأدرت ظهرك لأخيك. سقط العالم من بين يدي أبي، كما سقط هو من بين أيدينا، وأصبحنا نحن حلمه.

في مرة أخرى، وجدته يبحث عن تفاحة في البرميل الذي نبقيه في القبو. بالكاد ميّزته. كلما حاول التقاط قطعة الفاكهة، كانت تهرب منه، أو لعلني أقول إنه هو الذي يهرب منها، إذ ما عادت قبضته على الأشياء أقوى من الهواء المتسرّب عبر شقّ النافذة. نجح مرة - بعدما بذل كل تركيزه - في تحريك التفاحة من مكانها على وجه الكومة، لكنها ما لبثت أن تدحرجت فوق التفاحات الأخرى لتستقر عند فتحة

٢٧٠٧٢٣٩٠٦٥
الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

البرميل. بدا لي أنني حتى لو تمكنت من التقاط التفاحة بيديّ الفاشلتين، فكيف سأقضمها بأسناني المُبَدّدة؟ كيف سأهضمها في أمعائي الأثيرية؟ أدركت أن هذه الفكرة لم تكن لي، بل لأبي، فحتى أفكاره راحت تتسرّب من ذاته السابقة. اليدان، الأسنان، الأمعاء، وحتى الأفكار، كلها تتناسب ببساطة مع الظرف الإنساني، وكلما تقهقر أبي عن الظرف الإنساني، كلما فعلت كل أجزائه مثله، فتقهقرت وتحوّلت إلى زبد غير قابل للمعرفة، حيث قد يعاد تعيينها لتكون نجوماً أو مشبك حزام، أو غباراً قمرياً أو مسامير في سكة حديد. ربما كانت كل تلك الأشياء فعلاً، وربما يكون سبب تلاشي أبي هو أنه أدرك ذلك: يا الله! أنا مصنوع من كواكب خشبية، من الماس وقشر البرتقال، الآن وعندئذ، هنا وهناك، الحديد في دمي كان ذات يوم شفرة محراث روماني، اسلخ فروة رأسي وسترى أن جمجمتي مغطاة بنقوش كالتي يرسمها صيادو الحيتان على أسنان أسماكهم وعظامها، حفرها بخار قديم لم ينتبه إلى أنه يغمد مديته في رأسي... لا، إن دمي على محراث روماني، وعظامي يحفرها رجال، بأسماء تعني "مصارع البحر" و"راكب المحيط"، والصور التي ينتهون إليها فيها نجوم شمالية في مواسم مختلفة، والرجل الذي يبقي دمي مستقيماً فيما يشق التربة اسمه لوسيان وسيزرع القمح، وأنا لا يسعني التركيز على تفاحته، هذه التفاحة، والشيء الوحيد المشترك بين ذلك كله هو أنني أشعر بأسى عميق، لا بد من أنه الحب، وهم مستاؤون لأنهم، فيما ينقشون ويحرثون تزعجهم رؤى التقاط التفاح من قلب البرميل. أشحت بنظري وركضت على السلالم، متحاشياً الدرجات التي تصدر صريراً، كي لا أحرج أبي الذي لم يكن قد أنجز تحوله من طين إلى نور.

فلنفترض أن أمي قد ساعدت أبي على ارتداء ملابسه ذات صباح من نيسان. في الخارج عتمة ورياح، وندف الثلج تنهمر من السماء كما لو أنها رقاقات تتساقط من غيوم تعمل فيها الأزاميل، وثلاثتنا كنا في الداخل معاً طوال أربعة أيام بينما كانت تمطر، والريح تعصف، والأنهار والبحيرات تفيض عن ضفافها. قبل ليلتين، رأينا ساباتيين* يجذفون قاربهم خلف بيتنا. تقوّس ظهر أبي وما عاد قادراً على إدخال ذراعيه في كُمّي سترته بمفرده. وعندما ساعدته أمي، لمّ كُمّا سترته كُمّي قميصه اللذين ارتفعا إلى كوعيه. اهتزّ رأسه، وخلال صراعه وأمي مع معطفه، دُفعت قبعته

إلى زاوية غريبة، فبدت أمي وكأنها تجهد في إلباس فزّاعة عصافير. قالت له أمي بصوت متكدر وقلق في آن معاً: أيها الكاهن، أنت تعلم أنه يفترض بك ترك القبعة إلى النهاية. بدا وكأن ريقه قد جفّ، فصار لسانه يدور في فمه بحثاً عن الماء.

فلنفترض أن أمي ألبست أبي في الردهة، بدلاً من غرفة نومهما، وأن هذا الأنا الخائف يرى، مثلاً، ساقي أبي النحيلتين العاريتين اللتين لا حيوية فيهما في الغرفة التي كان يعزّي فيها الأرامل. أغلقت ستائر النافذتين ولم تُنِر أمي أي مصباح، فكانا يكابدان مع الضوء الشحيح المتسرّب من حواشي الستائر. وأنا وقفت عند المدخل المؤدي إلى المطبخ، أشاهدهما. عانى أبي فقدان كرامته، وكنت عاجزاً عن استعادتها من أجله. فكرة أن يصارع، هو وأمي، لإلباسه ثيابه في العتمة، سرّية وفظيعة. ومع ذلك، فإن فكرة السير عبر الغرفة وفتح الستائر لسكب كامل الضوء عليهما بدت أسوأ. لذا، قد يكون أقل ما يمكن أن أهب أبي إياه هو أن يُترك ليتداعى في الظلام.

حينما ارتدى ثيابه، وجّهته أمي إلى المطبخ. سارا معاً، جنباً إلى جنب، في ما يشبه العناق، وأمي تمسّد على ظهره بيد، وتمسك إحدى يديه بالأخرى، فترشده وتهدئه، وتتمتم له بلطف، منتبهة إلى موطئ قدميه كي لا يتعثر. تراجعت بدوري إلى المطبخ، ولما عبرا الباب رأتني أمي فقالت: عليك أن تحضّر فطورك بنفسك اليوم يا هاورد، فأنا سأرافق الكاهن. نظر إليّ أبي وهز رأسه، كما قد يفعل المرء حينما يلتقي أحد معارفه في الشارع. فتحت أمي الباب الخارجي ودخل الضوء لينحت كل شيء في المطبخ كتذكار قديم. لم أستطع أن أتخيل ما الذي يفعله الناس فعلاً بالمقلاة الحديدية أو بكل تلك القوارير. عبر الباب، خلف فنائنا، على قارعة طريق، رأيت أربعة رجال واقفين وقد ارتدوا معاطفهم واعتمروا قبعاتهم السوداء، وكانوا بانتظار أمي وأبي. هؤلاء أصدقاء أبي، رجال من دار العبادة. وقفت عند الباب، وشاهدت أمي وأبي يصلان إلى الرجال الذين تحلقوا حولهما ورافقوهما إلى عربة تجرها أربعة أحصنة كانت تنتظرهم على مسافة قريبة، ويقودها رجل لم أتعرّف إليه، إذ جلس متكوراً داخل معطفه وشاله ليحمي نفسه من الريح والثلج والمطر الذي بدأ يهطل مجدداً. ساعد الرجال أبي ليصعد إلى العربة أولاً، ومن بعده أمي، وذلك بعكس طقسهما المعتاد والذي تحتمه اللياقة، وقد بدا لي ذلك في حدّ ذاته نهائياً ومدمّراً.

فرقع اللجام بين يدي الحوذيّ فترنحت الأحصنة قبل أن تجد موطئها في الوحل، مع أنها جرّت العربة يارداتٍ عدة قبل أن تبدأ عجلاتها بالدوران فعلاً. عبرت العربة، بشخوصها السبعة المحدودبين، عند الزاوية البعيدة للفناء لتختفي بين الأشجار، وكانت تلك هي المرة الأخيرة التي أرى فيها أبي.

في صباح اليوم التالي، نزلت إلى المطبخ، حيث كانت أمي تعدّ الفطائر المحلاة. جلست في مكاني المعتاد إلى الطاولة ولاحظت أنه لا يوجد صحن لأبي. كنت في العادة أجلس إلى يساره. وأمي، حين تجالسنا عند تناول طعام العشاء (فهي لا تجلس معنا أبداً عند تناول الفطور)، تجلس قبالته، على الطرف الآخر من الطاولة. قلت: أين أبي؟أوقفت أمي ما تفعله للحظة، وملعقة المطبخ في إحدى يديها، فيما أمسكت باليد الثانية مقبض المقلاة الحديدية التي لفّتها بمنشفة الصحون، وقالت: هاورد الأب قد رحل. كانت نوافذ المطبخ كلها تواجه الغرب، لذلك كانت تمرّر نور الصباح إلى الغرفة فقط بما ينعكس منه من آخر الغيوم المتراجعة مع الظلام، ومن الأشجار في طرف الغابة خلف الفناء. بدا لي هذا حلماً عن موت أبي، نوعاً من التمرين تحسباً لوقوع الأمر فعلاً، أكثر منه حقيقة بسيطة في عالم اليقظة. صَعُب عليّ التمييز بين الواقع والحلم في تلك اللحظة، إذ لطالما راودتني أحلام يدخل فيها أبي غرفتي ليقبلني ويشدّ عليّ أغطيتي، والتي - بسببي أنا النائم القلق - تكون قد سقطت أرضاً. في تلك الأحلام، كنت أستيقظ، وعندما أرى والدي أشعر بإحساس يطغى عليّ؛ بأنه غالٍ عليّ كثيراً. لما توفي في حلم راودني، فهمت ما قد تعنيه خسارته، والآن عاد وكنت مصمماً على رعايته بشكل أفضل. بابا، كنت أقول له في تلك الأحلام، ماذا تفعل هنا؟ فكان يجيب بنبرة مداعبة كان عليّ أن أدرك أنها تنتمي إلى الحلم، نظراً إلى كونه لم يستخدمها في حياته، بالرغم من أنني كنت أتمنى ذلك: لم أرحل تماماً بعد. فكنت أقول له: حسناً، هذه المرة سنتأكد من بقائك معافى. ثمّ أعانقه.

لكن، ماذا أيها الثرثار السفيه؟ أتخمد رياحك العاقر الشعلةَ الملتهبةَ في قلبي؟ هذا مستحيل! فشعلتي هي تلك التي لا تنطفئ، والهراء الذي يأتي به صياحك لا يفعل شيئاً سوى أن يزيدها اضطراماً، فتتوهج أكثر، وتسخن أكثر وبثقة.

قررت أن أبحث عن أبي في الغابة. حين كنت أمشي في الغابة كنت أنتعل جزمة أبي القديمة. كان مقاسها كبيراً بالنسبة إلى مقاس قدمي، لذا، كنت أرتدي ثلاثة أزواج من الجوارب، فوق بعضها، لأجعلها على مقاس قدمي. وكنت أحمل غدائي في سلّته مجدولة القش التي تتدلى على ظهري، وأعتمر قبعته الواسعة. وفي أثناء عبوري رقعة الأرض التي زرعها آل غاسبار ذرة، تخيّلت نفسي وأنا أقطف عرنوساً لأقشره فأجد أسنان أبي وقد قضمت الحبات. كانت بيضاء ونظيفة، وإنما مهترئة. وفي سيري عبر الغابة، تخيلت أنني أقشر جذع شجرة؛ الطبقات الخارجية اللينة كالجلد، وأستمر بقشرها حتى أصل إلى الخشب. عندئذ، أدخل طرف سكيني في الخشب وأعمّق دخولها حتى تلامس شيئاً قاسياً، ثم أحفر مقتطعاً جزءاً من الجذع، أفتحه إنشاً تلو الآخر، فأجد عظمة طويلة في وسط الجذع الذي يغلفها. تخيلت أنني أسحب الحجارة الملساء من مهودها في الجداول، وأتسلق الأشجار وأتذوق نسغها بحثاً عن نكهة أبي. هكذا كنت أفكر في سرّي، باحثاً عما كان يسميه في عظاته النِّعَم العميقة السرية؛ فكرة لم أكن لأعرف إن كانت من بنات أفكاره أم أنه قرأها في أحد كتبه. جلت في أماكن مختلفة كنا قد قصدناها معاً، لأجد نفسي سائراً إلى أطراف بركة تاغ.

حوّل مطر الربيع الأخاديد العميقة في الطرقات المهجورة إلى برك مؤقتة. المياه تصل إلى الركبة، ولونها حديدي حليبي. كان على هاورد أن يعبر واحدة منها أحياناً إذ تكون ممتدة على عرض الطريق وحتى مدخل الغابة. وفيما يخوض فيها، كانت قدماه تدفعان غيوماً حليبية، بلون الصدأ، من القعر، لتتقافز منها صغار الضفادع الخضراء الزاهية والتي اضطرب تطورها السريع والدقيق. الطقطقة المنتظمة لنقّار الخشب ذي الريش الكثيف تناهت إلى مسمعه من مكان ما في الغابة، إلى يساره. فكّر في الانحراف عن طريقه ليجده، لكنه عَدَل عن تلك الفكرة. غطّى العشب العمود الفقري المنتصب للطريق التي لم تغرق في مياه الصدأ. مشى هاورد على ذلك الدرب الضيق. كانت الطريق مستقيمة إلى حد ما، لكنها، منذ أن هُجرت، تكفّلت الغابة بتغييرها، على مدى السنوات، فحرفت مساحات منها ذات اليمين وذات اليسار، فتعرجت والتفت حولها الغابة حتى صار السير فيها أشبه بالسير في نفق. تقاطر

الضوء من السماء بكميات متفاوتة. اتكأت أغصان القنب والبلوط على بعضها، على الجانب الآخر من الطريق، وتداخلت حتى باتت غير قابلة للتمييز بينها، فقد اختلطت أوراقها وتشابكت الأغصان، وكأنما، بعد مواسم تداخل عديدة، ترقّعت الأشجار من بعضها، وأضحت نبتة واحدة تنتج أوراقاً من فصائل متنوعة. كان الضوء عالقاً فوق رأس هاورد، متلألئاً ووفيراً. قطرات قليلة منه تمكنت من اختراق التشابك لتصل إلى العشب. كان هاورد قد مرّ مرتين بأماكن يتدفق إليها الضوء ويتجمع في برك على الأرض؛ مرة حيث تقف شجرة البلوط العملاقة، ومرة ثانية أبعد، حيث قسمت صاعقة الصنوبرة المتأنقة.

ما بدا نهاية الطريق كان، في الحقيقة، مجرد منعطف إلى اليسار أو إلى اليمن، أو انحداراً صغيراً أو ارتفاعاً متدرجاً. والطريقة التي تحركت بها الغيوم - معظمها غير مرئية فوق مظلة الأشجار - الآن تكشف نور الشمس كاملاً، ثم تحجبه في اللحظة التالية، والآن تنشره في الاتجاهات كافة، وبعد ذلك تعكسه. وطريقته في اللمعان والسيلان والتدفق والطوفان والغزل، والطريقة التي تفرقه بها الريح أكثر بين الأوراق الخفاقة والعشب المعقوص، تتضافران معاً لتشعرا هاورد بأنه كمن يمشي في "المِشكال" الذي تتحرك داخله قطع من الزجاج الملون. كأنما الأرض والسماء كانتا تدوران أمامه فتصلان طرفيهما في دائرة، حتى إن الأرض أوقعت أوراق الشجر ورماح العشب والأغصان وأزهاراً برية في الزرقة فيما هي تتأرجح فوق السماء، ولدى استدارتها عائدة إلى موقعها المعتاد، راحت تتلقى من السماء ترشبات الغيوم والنور والريح والشمس. السماء والأرض الآن حيث تنتميان، وجنباً إلى جنب، ومقلوبتان، وفي مكانيهما مجدداً، صامتتين دوّارتين. الحيوانات الطائشة تنقلت عبر ذلك الدغل الدوّار، والطيور واليعاسيب حطّت على أغصان صغيرة، وعادت لتحلّق في السماء مجدّداً. الثعالب مشت على حشوة الغيم، وخطت بعد ذلك على أرض الغابة بلا توقف، ومليون ذيل لشرغوف لوّحت من السقف المائي، ثم غرقت كلها في أعشاشها الموحلة. النور، أيضاً، تكسّر كصحن عملاق ثم عاد والتحم مع أجزائه لينشقّ مجدداً، كِسرة هنا ورقاقة هناك، وزجاج متوهج، وخصل مضيئة في التبادل السلمي الهادئ تُشبع كل ما يراه هاورد، حتى بدت كل الأشياء ذائبة ولا شيء يمسك

أشكالها أكثر من ريش الضوء الملون.

يصل هاورد أخيراً إلى مدخل بركة تاغ. هذا يوم حار بشكل استثنائي. يقوس هاورد ظهره ليتفحص المياه التي رثبت الطمى وأوراق الشجر في البرك خلف المدخل. الطمى والماء يختلطان ويكوّنان خليطاً نصفه ترابي ونصفه الآخر سائل. فبدا مظهره كمجرى جدول جامد. خلع هاورد جزمة أبيه، وأزواج الجوارب الثلاثة، وثنى ساقي بنطاله إلى الأعلى. عندما يخطو في الماء، يتحرك الوحل وفقاً لوقع خطواته، أرضية شبيهة تتنحى للأرض الحقيقية بمقاومة تزيد قليلاً عن مقاومة المياه المتدفقة فوقها. حركت قدما هاورد الطمى الراكد فبدا كالغيوم. عندها، وقف هاورد ساكناً لبرهة. غيوم الطمى تتفكك ويجرفها التيار بعيداً. وتصفو المياه التي يقف فيها مجدداً، ويبدو أن رجليه تنتهيان عند ركبتيه. فالنصف الغارق من رجليه مدفون بالطمى مع الأغصان المخبأة والحجارة التي - نظراً إلى كونها خفية - يشعر وكأنها عظام. بعد هنيهة يعود الترويت إلى حيث يقف قرب العشب الطويل والأكمة عند الضفّة. وتطفو بجانبه كتل من بيض الضفادع، وبعضها قريبة لدرجة أنه رأى الأجنّة داخلها. مرر هاورد قدمه في مجرى الجدول ووجد حجراً أملس عريضاً كفاية ليجلس عليه. وجد حجراً آخر ليضعه في حضنه كي لا يرفعه الماء. غطس في الطمى وجلس على الحجر المفلطح. الطمى عميق حيث الحجر، ولم يعلُ فوق الماء سوى رأسه، وفوق الطمى سوى رقبته. راقب الطمى يموج بعيداً من رقبته، وكأنما رأسه المقطوع رُمي في الماء، وبدلاً من الدم، راح ينزف غيوماً من التراب.

الوقت الآن عصر، وقرر هاورد أن يجلس هكذا طوال الليل، حتى تشرق شمس صباح اليوم التالي. في أثناء استطالة الظلال وزحفها على الماء، كان الجدول قد شفى نفسه من حوله، وهو يتخيل أنه سيتمكن الآن من رؤية الحيوانات والضوء والماء كما تكون حين لا يكون هو متواجداً، وأنه بهذه الطريقة سيعرف شيئاً عن أبيه. عليّ أن أجلس ساكناً، مثل ناسك، فكّر هاورد، سأتجاهل الانقباضات العضلية والبرد. سأتنفس ببطء شديد وبهدوء حتى لا تحرّك أنفاسي الماء المتدفق من تحت ذقني. سأتجاهل أي شيء يسعى كالحية بجانبي في الوحل. لا يسعني أن أغفو. لا بد من أنني سأرى أشياء مخيفة. ماذا لو رأيت أضواء في السماء؟ ماذا لو رأيت ظلالاً تقفز

على قمم الأشجار؟ ماذا لو رأيت ذئاباً تمشي على قوائمها الأماميّة وتنحني كالبشر لتشرب من الجدول؟ ماذا لو هبت عاصفة؟ ماذا لو صفت السماء وتلألأت بالنجوم إلى حدّ طاف معه النور على الأرض وتحول إلى أزهار بيضاء على أطراف الجدول، فالتمعت وتفرّقت ولم تخلّف وراءها أثراً لحظةً يعبر الكوكب أعمق خطوط الليل، ويبدأ استدارته نحو الشمس؟ ماذا لو رأيت أبي، داخل شجرة، يدندن لنفسه، راضياً ومسلّماً إلى أن يلاحظني جالساً في الوحل؟

في وقت ما بعد منتصف الليل، رأيت رأساً آخر في الماء، نصف محجوب بالعشب النامي على الأطراف، على بعد ياردات عدة من منبع الجدول، قبيل تحول البركة إلى مياه جارية تتجه شرقاً. كان القمر ساطعاً وأضاء الرأس. الرأس في مواجهتي. حاولت رؤية عينيه اللتين كنت أعرف أنهما مفتوحتان وأنهما تحدّقان إليّ من دون أن ترمشا، لكنني حينما نظرت إليهما مباشرة اسودّت الرؤية في عيني. فقط حين أنظر يمنة أو يسرة ينجلي نظري فأراهما بوضوح، وأرى أنهما عينان فأتخيلهما مفتوحتين ومحدّقتين. كان هندياً. لم يكن هنا عندما جلست في الماء. لم أكن قد رأيته يصل بالرغم من أننا في مواجهة بعضنا. عرفت أن عليّ ألاّ أتحرك، وأن شيئاً فظيعاً سيحدث لو فعلت ذلك. ندمت على مجيئي بحثاً عن ذخائر أبي، كما ندمت على سخافة ما أفعله. بدا لي حينها أن أبي كان رجلاً مؤمناً حقيقياً، وأنني كنت أبلة، وحيداً، وطفلاً بائساً. مرّ الليل ولم يتحرك الهندي، سوى مرة واحدة، حينما قفزت سمكة صغيرة من الماء وغطست في حلقه.

فكرت في أن الهندي لا بد من أن يكون ساباتيز العجوز. كان ساباتيز قد ترعرع في جزيرة في البركة قبل أن يذهب للعيش مع الأحمر. عمل مرشداً لصيادي الأسماك والطرائد. كان عادة يرتدي قميصاً قطنياً، وبنطالاً ذا حمّالتين بيضاوين، ويعتمر قبعة مهلهلة كبيرة. الجزء التقليدي الوحيد من لباسه هو حذاؤه الذي يصنعه بنفسه. خاب ظن بعض الرياضيين حين رأوه للمرة الأولى، فقد تضمنت خيالاتهم عن هندي يقودهم عبر الغابة صورة أكثر غرابة. لكن ساباتيز - مرة كل عام - كان يعتمر غطاء رأس قديماً، ويرتدي بنطالاً ضيقاً من جلد الغزال وسترة مشكوكة بالخرز كان قد اشتراها له دجيه. تي. سوندرز، وبنيّة طيبة - كما فكرنا - يلعب دور الزعيم الهندي

في معرض سوندرز في احتفال رياضيي بوسطن.

لكن الرأس العائم على سطح الماء لم يبدُ لساباتيز. يمكن لجموده أن يكون لساباتيز. لطالما سمعت قصصاً عن رياضيين يتركونه في المعسكر في الصباح الباكر، بعد أن يعد لهم الفطور، يتركونه جالساً في وضعية معينة ومقابلاً وجهة معينة، ليعودوا بعد ساعات ويجدوه في المكان نفسه. لكنه كان دائماً ينهض، ما إن يظهر الرجال، ويأخذ ما اصطادوه من سمك أو طرائد ليعد طعام الغداء ممازحاً إياهم، وقائلاً إنّ السمك الكبير لا بد من أنه قد اختبأ من الرجال البيض. لكن هذا كان جموداً مختلفاً ورهيباً. فحينما فُتِح الفم، بالكاد قبل أن تكسر السمكة سطح الماء، شكّل فجوة سوداء انسابت فيها المياه بسلاسة. وبالرغم من بُعد الرأس عني، إلاّ أنني كنت متأكداً من سماعي صدى الماء المتدفق في حلقه في اللحظة نفسها التي قفزت فيها السمكة. حينما قفزت السمكة، لم ترتفع كسمكة عادية تلتقط حشرة طائرة. فهذه السمكة غير معتادة، ومستحيلة، وخفيّة؛ إذ لا أثر لوجودها سوى الماء الذي خرجت منه، قفزت في فم الهندي مباشرة. لم تعاند. لم يرتطم ذيلها بالأسنان، ولم تتهيّب اللسان الذي لا بدّ من أنه بدا لها كسمكة ثانية. بكل بساطة، غطست في الحلق الذي يستقبلها، وأُغلق الفم بعد ذلك بسرعة هائلة لدرجة أن الحدث برمته بدا أنه لم يحصل إلا في مخيلتي؛ بل كأنه لم يحصل قطّ، إنما، وفجأة، حصل.

وجه الهندي كما كان.

ثم صار وجهي. للحظة، تحول وجه الهندي إلى وجهي ورحت أنظر إلى نفسي، وكأنني أنظر إلى المرآة. لاحظت أول خيوط النهار على قمم الأشجار. هبّ نَفَس ريح مفاجئ وشعرت بآلام وبرد، وخيّل إليّ أنني سأفقد وعيي. كان الرأس قد اختفى عن صفحة الماء. ما كنت لأشيح بنظري سوى للحظة، وهي قُطعاً غير كافية لينهض الهندي من الماء ويختفي في الغابة. لا شيء يعكر صفو الماء. لا أثر لأي شخص دخله أو خرج منه. كانت دهشتي من اختفاء الرأس آخر ما أتذكره قبل استيقاظي في خيمة، وحملي إلى خارج الغابة من قبل إيد تيتكومب ورايف ساندرز اللذين وجداني - خلال رحلتهما للصيد - فاقداً الوعي، نصفي في الماء ونصفي الآخر

خارجه، في العراء. تفوح من قماش الخيمة رائحة أحشاء السمك ودخان ومطر هطل مسبقاً. لا أظنه ميتاً، قال رايف عندما فتحت عيني. كان فوق رأسي وإيد عند قدمي. كان يفترض أن يموت، قال إيد من دون أن يلتفت. كان وجه رايف فوقي مباشرة، وجهه والأشجار من خلفه تتمايل على إيقاع خطوات رايف وإيد. تقدما بسرعة وبشكل غريب، وأنا متأكّد من أنهما كانا يفضلان حملي مربوطاً من معصمي وكاحلي إلى سارية خشبية، كما يحملان الدببة التي يطلقون عليها النار. كان رايف يدخن سيجاراً كالعادة. لعله يموت قريباً، قال، وانفجر الرماد من سيجارته المتدلية كالمفرقعات النارية مع نهاية كلامه، فسقط عليّ كله، وكسا شعري ووجهي. نظرت إلى الأمام، ورأيت ظهر إيد المقوّس مغطى بقميصه القطني الأحمر. غطت قبعته شعره الأسود المتموج، لكنني فكرت في أن رأسه كان منحنياً إلى الأمام كاشفاً رقبته الباهتة، وأنه لا بد من أنه يمضغ التنبك أيضاً، وقبيل فقداني الوعي مجدداً رأيت نافورة عصير بلون الشاي تُبصق من وجهه المحجوب على الأكمة المحاذية للطريق.

أذكر أن أبي كان يملك زورقاً خشبياً صغيراً حين كنت يافعاً جداً. هنود صنعوا الزورق وأبي اشتراه منهم. كل ربيع، عند ذوبان الجليد، يظهر أحد الهنود من الغابة، ذات صباح، ويُجري صيانة للزورق استعداداً للموسم الجديد. لم أرَ أبي يتحدث إلى الهندي قطّ، ولا أعرف كيف كانت الدفعات تسدد وبأي عملة كانت تدفع. بعد شدّ الوصلات المرتخية واستبدال ألواح الخشب المهترئة بأخرى جديدة، يختفي الهندي بكل بساطة خلف الأشجار. أتذكر كيف كنت أجلس القرفصاء، على بعد ياردات من المكان الذي يشتغل فيه الهندي، محاولاً أن أتعلم قدر استطاعتي - غير أنني لم أتعلم شيئاً - لكنني شعرت بأنه عليّ أن أفعل ذلك، وكأن الدرس الذي أتعلمه هو مجرد بذل الجهد. بمجرد أن كففت عن متابعتي عمل الهندي بعد أن شردت لدى رؤيتي أول طائر أبي الحناء يظهر في الربيع، كان الهندي قد اختفى بلا صوت، بل وبلا حركة، وكأنما الجذوع والجذور أعادت امتصاصه، ومعها الحجارة وأوراق الشجر، والنور والظلام والموسم أيضاً، والزمن ذاته.

لعلّ ساباتيز العجوز هو من كان يصلح زورق أبي كل ربيع؛ بمجرد ذوبان الجليد عن البرك والبحيرات. بدا لي بقدم الضوء المنتشر في الاتجاهات كافة. أفكر فيه

عندما تمتلئ السماء بالغيوم القاتمة التي تقتفي الشمس آثارها المبعثرة على أصفى وأنظف أزرق يمكن تخيله. عندما ترتفع الأوراق الذهبية والحمراء والبنية في دوائر الريح عبر الدروب، فذلك يبدو كمرور زمنه. عندما تُضاء البراعم الجديدة على الأغصان السوداء الرطبة، فإنها تندفع قدماً من الجهة الثانية للزمن المنتمي إلى ساباتيز ورجال مثل أبي. بالطبع، ساباتيز من زمن غابر بالنسبة إليّ وحدي فقط، وأبي مثله أيضاً، لأن الرجلين مرّا في الحياة عندما كنت يافعاً. ذكرياتي عنهما كالغلاف الجوي. استُخدم ساباتيز العجوز لإخافة الأولاد أو لتفسير حالة مناخية غريبة. أحياناً، يُرى على قمم الأشجار. وأحياناً، يراه رجال عند البركة مندفعاً كالسهم في عمق الماء تحت قواربهم، ومطارداً سمك الترويت. كان الأحمر العجوز كتوماً جداً بخصوص ساباتيز. الرجال الذين يستعينون بخدماته كمرشد في الغابة يسألون الأحمر عنه، فلا يقول الأحمر سوى إن ساباتيز قد رحل. حتى الرجال الأكبر سناً، والذين اتكلوا على ساباتيز ليكون مرشداً لهم من قبل، في العام 1896 أو 1897 - لا اتفاق حول التاريخ، فقد فُهم ببساطة أن الأحمر بات مرشد رحلات صيد الأسماك والطرائد - حتى هؤلاء لا يتحدثون عنه، معمقين الانطباع عن مرحلة منذ ما قبل التاريخ، عندما كان الصيد خطيراً ووحشياً، يقوده هندي نصف بزّي يتذكر حكايات جدّه عن غارات، ليس على الدببة أو الغزلان، بل على البشر، والذي - لهذا السبب - كان مراقَباً عن كثب، وممنوعاً من احتساء الشراب خلال الرحلة خوفاً من إيقاظ الشراب غضباً موروثاً ما. لا أحد من بين أولئك الرجال البيض الأكبر سناً شك للحظة في أن هذا الهندي في وسعه ذبح كتيبة من ثمانية أو عشرة رجال مسلحين إذا اختار الركون إلى حكمة الأسلاف المتوحشين. ومن أحاديثهم التي كنت أستمع إليها حين كنت ولداً، فهمت أن واحداً منهم فكّر للحظة في أنه قد يسلخ رأس رجل في نومه أو خلال الصيد، كما كان يقال في الغابة، بالرغم من أن أياً منهم لم يمانع فكرة أنه كلما ازداد اعتراضاً على الطبيعة الهادئة لساباتيز، كلما اقتنع الناس أنه من بين الرجال الذين يغامرون بالتخييم مع أفكارهم الشريرة، وأن النوم والصيد بموجب إرشاداته لأسابيع في البرية ثم العودة إلى البيت بسلام - إلى وظائفهم كمصرفيين أو محامين أو مديرين في الطواحين - تشير إلى إيمانهم الحقيقي العميق وقوة شخصيتهم البطولية، وأنهم، هم أنفسهم، يبدون الآن رجالاً يضعون قَدَماً في العالم

القديم حيث النار والطوفان، والقَدَم الثانية في عالم آخر جديد حيث الإنتاج والسلع والأسواق.

طبعاً، كان ساباتيز رجلاً كأي رجل. كان معروفاً بحبّ النظر إلى أي صور فوتوغرافية قد يودّ الناس أن يعرضوها عليه، ولو أنه كان يرفض أن تُلتقط له صورة، إلا إذا - وللغرابة - التُقِطت له مع طفل. ثمة صور عديد له أمام متجر تيتكومب أو على شرفة فندق كاري الشمالية (حيث عمل فصول صيف كثيرة في قطع الخشب) مع طفل يحمله بين ذراعيه. كانت تلك هي المرات الاستثنائية التي يُرى فيها ساباتيز مبتسماً. كان أيضاً يحب الحلوى الطرية والتي كان يقبلها، على الدوام، من الرياضيين الآتين من بوسطن، كجزء من أجره كمرشد. لا أسنان في فمه. لذا، كان يزلق الحلوى بين لثتيه وباطن خدّه ويتركها تذوب. كان يعيش مع الأحمر، الذي كان يدعى الأحمر الصغيرفي تلك الأيام، في مقصورة عند أطراف البلدة، خلف شارع غودينج الجديد حيث ارتفعت بيوت لمديري الطواحين الذين وُظّفوا إثر توقعات بازدهار الأعمال ما إن تعبر القطارات ويست كوف. لا أحد يعرف ما إذا كان ساباتيز والأحمر قريبين بالدم. كان بعض أمناء المكتبات العجائز الذين امتلكوا حسّاً ما بتاريخ البلدة، يعتقدون أنهما ربما ابنا عمومة من بعيد. وكم يسهل إشعال جدل ساخن حول الموضوع في غروب شمس يوم شتوي بطيء عند مكتب إعارة الكتب في المكتبة. ولعلهما كانا يقطنان معاً لأنه من الأفضل لأي منهما العيش مع هندي غريب تماماً بدلاً من العيش مع أكثر الرجال البيض ودّاً. قلما رآهما الناس معاً خارج فنائهما المشترك، ولم يسمعهما أحد يتحادثان قطّ. صار الأحمر الصغير الأحمرَ العجوز عندما مات ساباتيز، أو بالأحرى اختفى. في خريف العام 1896 أو 1897 - بحسب المتكلم - قصد رجال المقصورة للترتيب لرحلة الصيد ولم يكن ساباتيز هناك. قال الأحمر: لقد رحل، ولم يُضِف شيئاً. تفهّم الأحمر خيبة أمل الرجال؛ وكان، نوعاً ما، أكثر ترويضاً وألفة من سلفه. فأرشد الأحمر الرجال في رحلاتهم، وأبلى بلاء حسناً؛ تماماً كما كان ساباتيز يفعل، من دون تدريب أو خبرة حسبما بدا. بتحوله إلى الأحمر العجوز، بدا وكأنه يتخلى عن ذاته كرجل ليصبح تجسيداً لشيء خارج الزمن، وأن وجوده كشخص ليس سوى وجود ظرفي.

لم يشأ إيد ورايف إضاعة يوم مؤات للصيد، ربما لأن عائلتيهما تعتمدان على ذلك. ولعلهما قررا أنني لست مهدداً بالفناء التام، إذ أنزلاني على تقاطع طريقي الحمولات، حيث يعلمان أن فريق تحطيب سيمر بي. لا بد من أنني استيقظت بعد فترة وعدت أهيم في الغابة.

أظن أنها كانت نوبة الصرع الأولى التي تنتابني. عندما استعدت وعيي ثانية، أمضيت بعض الوقت ضائعاً، ولم أعد إلى البيت إلا بعد غروب الشمس. كنت مبللاً وأشعر بالبرد حتى العظم. دم متخثر خضل شعري، وكان قد سال في خطوط من زاويتي فمي على فكّي وإلى داخل أذني حيث تجمّع وازداد سماكة. وبالرغم من أنني كنت أسمع لهاثي وأنا أمشي في الظلام، إلاّ أنني ظننت أنني أصبت بالصمم إذ لم أعد أسمع شيئاً من خارجي، كخطواتي أو صوت الريح. كان لساني متورماً نتيجة عضّي عليه حتى كدت أقطعه، بحيث إنني لم أستطع إقفال فمي بالكامل.

عندما دخلت المطبخ من الباب الخلفي، كانت أمي جالسة إلى طاولة المطبخ ترتق أحد جواربي. قالت لي شيئاً من دون أن ترفع رأسها أو حتى تحرك فمها. لم يكن هناك سبب كي ترفع صوتها أو تنظر إلى عيني أو تتلفظ باسمي لتحظى بانتباهي. فأنا وهي نعلم أنني أهتم بما تقوله.

أجبتها وأنا أصيح بصوت عال: أنا تحت تأثير تعويذة وقد أصبت بالصَمم.

وضعت الإبرة والخيط جانباً، وقامت لتمسك بيدي وتأخذني إلى الطاولة. أجلستني وخرجت إلى مضخة الماء، حيث بلّلت منشفة. شممت رائحة الصابون الذي استخدمته، ورائحة الخشب المحترق في الفرن، ورائحة الطعام في المطبخ؛ رائحة دجاج وزبدة وخبز، بالرغم من أنها لم تكن قد أعدّت العشاء.

نظّفت الدم من أذني أولاً، وعادت أصوات العالم إلى رأسي، أوضح مما أتذكرها.

قلتُ إنك وقعت في مأزق، قالت لي.

ذهبت للبحث عن بابا.

فرَكّت وجهي وشعري لإزالة الدم عنهما. حرقني جلدي لشدة ما فركته، وخيّل إليّ

أنها ستنزع شعري من فروة رأسي. بكت وهي تنظفني؛ لم تنتحب، بل أسكتت أساها بأن تنظفني بكل قسوة حتى أصدرت صوتاً يشبه العواء، فهدأت. أمسكت وجهي بين يديها، وكانتا باردتين وخشنتين وصلفتين، وطلبت مني أن أفتح فمي.

يجب ألاّ تتكلم لأسبوع.

بدأت بالاعتراض: ذهبت للبحث عن أسنان أبي في خشب الأشجار، وعن شعره بين شتلات الأكمة...لكنها أحكمت قبضتها حول وجهي وقالت: كفى، سبعة أيام. سيقع لسانك إن تكلمت أكثر. لعلها محقة، وما أدراني أنا؟ شعرت بلساني كشوكة الأكل في فمي، شعرت به غريباً ومشوّهاً. لذا، لم أجرؤ على النظر إليه في المرآة.

كانت تلك الليلة هي الأولى التي أمضيها وأمي في المطبخ من دون أبي؛ هي قرب الفرن تعدّ الطعام، أو تجلس على الكرسي المستقيم وتصلح ثيابنا. في ليالي الأحد، كانت تكوي الملاءات والستائر فيما أنجز فروضي المدرسية، وأنا أستمع إلى صوت هسيس البخار الصاعد من الطعام وأشمّ رائحة النشاء الساخن. وبعدما شفي لساني بوقت طويل، واستعدت قدرتي على الكلام، بقيث وأمي على صمتنا.

غير أنها، في تلك الليلة الأولى، أعدّت لي حساء، وأطعمتني إياه بواسطة عصا تنك مجوفة أدخلتها من زاوية فمي إلى حلقي تقريباً، كي لا يلامس الحساء لساني، كما تطعم أمهات الطيور فراخها. كان الحساء ساخناً ومالحاً وكان يحرق طريقه إلى معدتي. وما إن استقرت حرارته في معدتي، حتى راحت تشعّ من وسطي إلى أن عمّ الدفء جسدي كله. كانت أمي صبورة جداً. استغرقت العملية ساعة. أتذكر التبادل التدريجي بين البرد والألم وبين الدفء والإنهاك. كانت الغابة قد سحبت مني بذرة الحرارة الصغيرة التي يُفترض وجودها في كل إنسان، وأدركت حينها كم هي ضئيلة وهشّة، وكيف أنها بالكاد تستحق اسم الحرارة، فذلك الكمّ صغير - ومهما كان مصدره - شحيح، وأدركت أنها مثل اختفاء أبي أو البيت، حينما ثرى من الماء، تخفق قليلاً ثم تنطفئ.

4

خلال النهار، يعي جورج تدفق جمع كبير من الناس المتمتمين، دخولاً وخروجاً وكأنهم المد والجزر. وإنما في الليل، حين يستيقظ، لا يجد سوى شخص واحد جالس على الأريكة قرب سريره، وهو يقرأ على ضوء خافت لمصباح صغير وُضِع عند الطرف الأقصى للأريكة. الشخص مألوف بالنسبة إليه دائماً، لكنه لم يكن يستطيع أن يعرف من هو بالتحديد، وإن كان رجلاً أم امرأة، صديقاً أم أحد الأقرباء. وكأنه كلما حاول جمع حواسه للتركيز على الشخص - على الشعر، والعينين، والخدين، والأنف - كي يتذكر الاسم، تراجع الشخص إلى هامش رؤيته، بالرغم من أن الشخص يظل جالساً في مكانه وفي وسط مجال الرؤية.

في الليلة الأولى التي وجد فيها الغريب الودود، سأله: من أنت؟ فأبعد الغريب نظره عن الكتاب وابتسم قائلاً: أنت مستيقظ. سأله: كم الساعة؟ أجاب الشخص: الوقت متأخر جداً. بدا أن هذا التبادل يحدث من دون أن يتكلم هو أو الشخص الثاني. لم يكن باستطاعة جورج أن يؤكد ما إذا كان ذلك بفعل تأثير الحبوب أم أنه ارتباكه المعهود، بل لعله لم يكن يتواصل مع الشخص الآخر مطلقاً، بل كان يتراءى له أنه حين يفكر في شيء ما، فإن الشخص الآخر يجيبه قائلاً: أنت هنا تتحدث إلي. أنت واضح كرنّة الساعة.

حاول جورج إتمام رؤية واضحة للشخص بأن يشيح بنظره عنه للحظة، ليركز على لوحة الطبيعة الصامتة في الجهة الأخرى من الغرفة، ثم يعاود النظر إليه مع التركيز على النظر إلى عينيه مباشرة. وحينما يفعل ذلك، لا يعود الشخص جالساً على الأريكة، بل يصبح هائماً فوق الوسائد. وما إن يقع عليه النظر حتى ينتقل إلى اليمين أو اليسار من دون بذل أي جهد، وكأنما الحركة هي رد فعل غير إرادي، نوع من الدفاع الطبيعي، وبدلاً من أن يُرى مباشرة، فإنه - أو إنها - يقدم رؤية مراوغة، تخفق على خلفية فيها ستائر ومصباح مكتب وأريكة.

كان الشخص فتياً؛ أي أنه ليس طفلاً، أو مراهقاً، لكنه أصغر بكثير من جورج الذي كان في العقد الثامن من عمره، على الأقل جسديًا، غير أن الشخص كان يبدو بمظهر من يبلغ من العمر مئة عام، في آن معاً. أي أن الشخص يحتوي مئة عام، لكنها أعوام

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

متداخلة، وكأن شخصاً ما يخوض تجارب عدد من الأعوام في وقت واحد.

كنت أفكر، قال الشخص بصوت هادئ، كنت أفكّر في أنني لست كبيراً في السن، ولكنّ عمري بامتداد قرن كامل. أعتقد أنّ لديّ عمراً محدّداً، غير أنه في شعاعي سنوات كثيرة. أظنّ أنّ هذه السنوات عبارة عن أيّام، كما أنها تقارب القرن؛ وهي هدية منك. شكراً لك. الآن، دعني أقرأ لك شيئاً كي تعود إلى النوم.

كوميتا بوريالس: دخلنا الغلاف الجوي عند الغسق ونحن نجر خلفنا ذيلاً نارياً. كنا ذيلاً متألقاً من النار البيضاء فوق قطعان ترعى في سهول الطمى. السهول البنفسجية: صخور فاخرة من نهر منقرض تُنثر على سرير محيط منقرض. ربما، بعيداً، كانت هناك ثورة... عصفت قلعة ثكلى مبنية على انعطافة نهر بعيد؛ غامض ومغلّف بالغابات. لكن هنا، لا يحمل الرؤوس ذات الشعر الأشعث سوى الأيائل، ذات القرون المخملية، التي لا تتوقف عن المضغ عند مرورنا الصامت مُستعرين في السماء الباردة، تلاحقنا عيونها السوداء الرطبة، فقط لأن تلك هي طبيعة العيون والضوء. كنست الرياح السهول. لم نرَ الأيائل ولا الثورة. كنا الفتيل المشتعل. بالكاد لمحنا العالم المظلم تحتنا قبل أن نحترق تماماً فلا يبقى منا شيء.

قبل اثنتين وسبعين ساعة من وفاة جورج، ظهرت نيكي بوشيكي، من المعارف القدماء من دار العبادة، في سيارة ألفا روميو حقيقية ومكشوفة السقف، يتطاير منها شال. خلعت نظارتها الشمسية السوداء، وقبّلت زوجة جورج على خدّها. لما رأت جورج في سريره، قالت: آه! جورج، أيها الوسيم! قبّلته على جبينه مخلّفة طبعة أحمر شفتيها. لم يعرفها جورج، لكن وجهه أظهر تعبيراً سخيفاً مثل شخصية هزلية. من هذه السيدة الجميلة؟ قال، وكان ذلك صواب القول. وبالرغم من أن ما قاله كان ليبدو محبباً فحسب، إلا أنه أيضاً لم يعرفها. وضعت نيكي يدها على كتفه، ووصفته بالرجل غير القابل للعلاج، واحمرّت وجنتاها.

كانت نيكي سيدة مسنّة، ترتدي ملابس ممثلة سينمائية ناشئة تتقدم في السنّ، ودورها الأخير والأكثر درامية يتمحور حول ممثلة ناشئة تتقدم في السن بدأب بحكم زمن طاغية. كانت، في الواقع، ممرضة. دردشت مع جورج (الذي لم يتذكرها بتاتاً) وزوجته، وطردت أفراد العائلة المنهكين من الغرفة. أمامي ثلاث ساعات قبل بدء مناوبتي، ولا يسعني أن أفكر في طريقة أفضل لتمضيتها من الاعتناء بكعكتي

المحلاة. هل لي بشفرة ومنشفة وبعض الماء الساخن؟ ليس من المألوف أن يكون جورج غير حليق، فلطالما كان أنيق المظهر، ورشيقاً في تصرفاته.

عندما عاد أفراد العائلة بعد ساعتين حصلوا خلالهما على قيلولة، ودخّنوا السجائر، وتبادلوا المشادّات المهموسة في الفناء الجانبي، كانت نيكي جالسة بالقرب من جورج، تقرأ مجلة ذات غلاف لمّاع بعنوان ***عقارات دولية فاخرة*** وتمضغ لبانة خالية من السكر. وكان جورج نائماً تحت غطاء أبيض، لا يظهر منه سوى رأسه. كان وجهه نظيفاً وناعماً، وشعره مقصوصاً ومسرّحاً. وقد وضع نظارته. وبدا وكأنه غفا على كرسي الحلاق. عندما عبّر أفراد العائلة عن إعجابهم بما قامت به، قالت نيكي: آه! نعم، نعم، كما تعرفون، نحن لا نملك سوى مظهرنا.

يتضمن ميزان الساعة لساناً على ترس، وعجلة الميزان الموجودة في أعلى الآلية. هي في آخر القطار الذاهب. سلسلة المسننات هي ذلك الجزء من الساعة الذي يحفظ الوقت. إذا كانت للساعة رنّات، فهناك أيضاً سلسلة للرنات. سلسلة الرنّات تضبط آلية الرنة في الساعة، وهي تتألف ببساطة من سقّاطة، ومطرقة، وحلزونات فولاذية، والتي حين تُطرق بالمطرقة تصدر رنّة. لكل سلسلة مسننات، زنبرك، وهو من فولاذ مفلطح ومبروم. الزنبرك موصول من طرفه. التعريشة تدار بمفتاح لشد الزنبرك. لا يعود الزنبرك ينحلّ خلال شذه بعجلة صغيرة وسقاطة. في الساعات الأحدث توضع في غرفة، هي طبل من النحاس، يقال لها برميل الزنبرك. ثم يفلت الزنبرك الأساسي، وتنتقل الطاقة الناشئة عن ذلك إلى سلسلة من العجلات والتروس التي تحرّك ذراعي الدقائق والساعات في قرص الساعة. في آخر هذه السلسلة هناك ميزان الساعة. من هنا تهرب أخيراً من الساعة الطاقة التي يولدها الزنبرك الرئيس. وهنا أيضاً يُحافظ على استدامة دقات الساعة ودِقّتها، ما يعيدنا إلى المنصة النقالة وعجلة الميزان. الطاقة تأتي عبر العجلة، التي نظراً إلى كونها في آخر السلسلة، فهي أكثر العجلات أناقة وحساسية بين العجلات. فهي تعطي الطاقة، التي رؤضتها التروس المتتالية، من طاقة متوحشة إلى خادم متحضّر، وذلك لتأدية المهمة الأسمى؛ أي التعاون مع المنصة النقالة لتعيين كل 86,400 ثانية في يومنا الأرضي، وبمنتهى الدقة، إضافة إلى فعل ذلك لثمانية أيام، كل مرة، ليصل المجموع إلى 691,200 ثانية أو 192 ساعة. هذا التعاون، وكل ثانية من مئات آلاف الثواني تلك، تُسمع في

أوقات راحتنا وهدوئنا، مطمئنة إلى "تيك-تاك" ليلة شتوية من الساعة التي فوق المدفأة حيث تتوهج نار الدفء. وإذا ما استحضرنا الناجين عبر السنوات، هايغنز، غراهام، هاريسون، تومبيون، دوبوفاير، مادج، لوروي، كيندال، ومؤخراً السيد آرنولد، لوجدنا - في حال التصميم والصبر - تشكيلة متواضعة وإنما متنوعة، من الأشخاص العقلانيين، كلهم منحنون فوق طاولات العمل، يعبئون النحاس، ويعايرون التروس ويرسمون الأفكار على أوراق جانبية حتى تذوب أقلامهم، وتتحول إلى غبار رصاص بين الأصابع، وذلك كله لتحويل الطاقة الكونية بامتياز، وترجمتها، وجعل ميزان الساعة مثالياً. استمع، أيها الساعاتي، إلى أسماء أدواتهم: الحافة، الدقة الميتة، تيك - تاك، مشواة، جندب، رافعة الحجز، الجاذبية، خافض التوتر، عجلة الدبوس. وكشعرائنا العظماء، الذين يتأملون رعي الغنم بين الأطلال العتيقة فيجدون القافية والوزن، باختصار، جد موسيقى البيت الأحلى، كي يجد أعظم رجال الساعات بيننا الشعر الساكن في العملية البشرية التي تقظر الحضارة من الطبيعة المشاغبة! أهلاً بك يا صديق، أهلاً

من كتاب **"الساعاتي العقلاني"**

للكاهن كينر دافنبورت، 1783

لا يطرق أفراد العائلة والأصدقاء على الباب قبل دخولهم بيت جورج، ودائماً يأتون من الباب الخلفي، عبر الشرفة ذات الفصول الثلاثة ومن بعدها المطبخ. يكون جورج إما في القبو يشتغل بالساعات، أو يأخذ قيلولة على أريكة غرفة الجلوس (ذراعه على جبينه، ونظارته على المنضدة بجانبه)، أو إذا كان الوقت وقت غداء، فإنه يكون جالساً إلى طاولة المطبخ وهو يحدّق إلى "وول ستريت جورنال"، ويتذمر لزوجته من أن إعداد الطعام يستغرق وقتاً طويلاً، فتجيبه: اخرس، وقم وحضّره بنفسك إن كنت تريده بهذه السرعة. وغالباً ما كان يتشاجر مع وزوجته على هذا المنوال. هو يتذمر من طبخها - الجيد جداً - أو غسيلها - وهي لا تقوم بغسله فحسب، بل تكويه قطعة قطعة بما في ذلك ثيابه الداخلية - وهي تجيبه أن في وسعه الذهاب إلى الجحيم إن كان ما تقوم به لا يعجبه، وأنها ذاهبة لشراء حذاء. عندها، يضحكان معاً. وهكذا تفوح من البيت رائحة النشاء وصابون الغسيل والدجاج المحمّر وزيت بذر

الكتان والنحاس. ظهور الزوار في غرفة الجلوس وإيقاظهم إياه من نومه الخفيف لم يجفلا جورج يوماً. (حتى في الليل، وفيما يشخر كأسد يزأر، فإن كلمة هادئة تنقله إلى يقظة كاملة).

الزبائن الذين يودعون ساعاتهم لديه أو يأخذونها يأتون من الباب الأمامي، من مدخل صغير ملاصق لغرفة الجلوس. في فترات مرضه الأخيرة، سئمت زوجة جورج الغرباء الذين يقاطعون يومها؛ إذ يظهرون عند بابها، وفي أيديهم ساعات رخامية سوداء في علب الورق المقوى، أو ساعات محفورة في خشب الجوز مُتأبَّطة تحت أذرعهم، أو ساعات طويلة عاجزة مربوطة إلى عربات يدوية تُجرّ إلى مدخل البيت. كما سئمت طريقة جورج في الحديث إلى زبائنه، وهي مزيج من المزاح الأليف والأسف التآمري. وكانت تنزعج، أكثر ما تنزعج، حين يسحب الزبائن دفاتر الشيكات ثم يسألونه عما يدينون له به. السعر دائماً يفاجئهم، إن لم يغضبهم. وعندما لا يكون في برنامجه استقبال أي زبائن - أو ربما يستقبل قلة - غالباً ما يمضي جورج نهاره وهو يقود سيارته حول الساحل الشمالي وكايب آن، ليصرف الشيكات في المصارف، كي يودع المال نقداً في حسابه. وعنده أيضاً ستة صناديق إيداع في ستة مصارف، وكان يعمل على إيداع مئة دولار في كل منها. وحينما توفي، ترك ستة صناديق إيداع تحتوي على مال نقدي، وصندوق سندات خزينة، وثلاثة حسابات مصرفية، وحسابين توفيريين، وسبع شهادات إيداع في ثمانية مصارف. كان جورج يزور كل المصارف بانتظام ليرضي نفسه بالاطلاع على الفوائد وكشوفات الحسابات، بالإضافة إلى رزم الأوراق النقدية السميكة.

في معظم الأحيان، كان جورج يقوم بجولاته المصرفية تلك مع إدوارد بيلينغز، مدير فرع مصرف "سايلم فايف" في إينون. إدوارد أطول من جورج بقدم ونصف، وهو مثل بطل أولمبي، ويرتدي دائماً بذلة من ثلاث قطع، ورأسه متطاول، تعلوه قُبّة صلعاء لشدة ما تعكس أضواء السقف في المصرف تبدو وكأنها مضاءة من تلقاء ذاتها. حزام الشعر الذي يحيط برأسه مصبوغ بعناية، وحينما لا يكون كفّاه ضاغطين على بعضهما عند أطراف الأصابع - كأنه يتضرّع أو يسدي أحدهم نصيحة - فإنه يمسّد بهما جمجمته. يوحي مظهر الرجلين بفصل من مسرح "الفودفيل" صباح يوم ثلاثاء، في كانون الثاني. كانا يقفان إلى جانب بعضهما خلف مكتب إدوارد في

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

آخر المصرف، وينظران إلى ساعة فيينا هائلة الحجم ومعلّقة على الحائط. جورج سيجري عملية صيانة الساعة لإدوارد (على نفقة المصرف طبعاً)، والاثنان يتأملان الرقّاص الساكن فيما هما يتحدثان.

قال إدوارد: لقد توقف فجأة، سيد كروسبي.

قال جورج: تلك الأشياء سافلة خادعة.

رنّ هاتف إدوارد فاعتذر ليجيب. تحدث محنياً رأسه، ومديراً ظهره لجورج. وفيما راح يقول للسيد وايت، عبر الهاتف إنه سيحصل على تلك الملخّصات في نهاية الأسبوع، وضع جورج الساعة على المسمار الذي علّقت عليه. استدار إدوارد باتجاه جورج، ورفع له سبابته مع هزة رأس، وهو يقول عبر الهاتف، نعم، نعم، هذا صحيح، الجمعة على أبعد تقدير، صباح السبت مؤكد، إن لم يستطع فرع لينش التدخل. هز جورج رأسه هو أيضاً، وقال بشفتيه، ومن دون صوت: علي أن أخرج وأحضر شيئاً من السيارة.

عاد جورج إلى المصرف ومعه سُلم وعلبة الأدوات. وضع السلم أمام الساعة، وفتح بابها الزجاجي، وتسلق السلم، وتفحّص داخل الساعة. شخر وشتم وترجّل عن السلّم ليستبدل الأدوات التي بين يديه ثلاث مرات. وكان طوال ذلك الوقت يفكر في أولاده وأحفاده، في ثيابهم الشتوية وسقوفهم الجديدة، وزيجاتهم المتعثرة، وسنواتهم في الجامعات الخاصة. وبعد نصف ساعة، قال أخيراً: آها، أمسكت بك. ونزل عن السلّم ماسحاً جبينه بمنديل. ملأ إدوارد استمارة صفراء، وأخرج من الدرج ثلاث أوراق من فئة مئة دولار وقدّمها لجورج الذي سلّمها سريعاً إلى موظفة في منتصف العمر تدعى إيدي، وتعمل في المصرف منذ العام 1961. قال لها: ضعي النقود في ذلك الصندوق الرمادي الصغير الذي تحتفظين لي به عندك في الخلف، يا عزيزتي، مع البقية. وكيف علمت أنك ستقول ذلك يا سيد كروسبي؟قالت ضاحكة ومفرقعة باللبانة التي في فمها. أخذت منه الأوراق النقدية ولعقت إبهامها وعدّتها مرتين، واحد اثنان ثلاثة، واحد اثنان ***ثلاثة***، ثم ضغطت على زر أصدر صوتاً كهربائياً، واختفت في الخلف حيث خزنة المصرف. في تلك اللحظة، بدا المصرف لجورج، هادئاً ومنظماً، فيما الموسيقى الهادئة التي لا طعم لها تنساب من مكبرات الصوت الثابتة في السقف، وكأن المكان يستحم بنور ذهبي.

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

على ورق الجدران في ورشة عمل جورج في القبو، رسومات أغصان شجر على خلفية داكنة اللون. الساعات في مختلف مراحل التصليح، وإعادة التصليح، معلقة على الحائط، بعضها يتكتك، وبعضها الآخر لا يتكتك، بعضها في علب، وبعضها الآخر نحاسي عارٍ ومتماسك خلف العقارب. عادةً تكون على الحائط خمس وعشرون أو ثلاثون ساعة، معلّقة على ارتفاعات متفاوتة؛ بعضها للبيع. ولا واحدة منها تحمل أي علامة أو كتابة من أي نوع. الخزانة إلى يسار مكتبه مصنوعة من ألواح خشب الصنوبر، وهي تملأ المساحة تحت الدّرج. بين ألواح الصنوبر، وورق الجدران ذي الأغصان، وخشب الساعات، إضافة إلى النافذتين الوحيدتين اللتين تبدوان كبئرين جافتين في أعلى الحائط قرب السقف، يشعر المرء أنه في مكان حيّ تظلله الدقات مع الشجر. كان جورج يجلس إلى طاولته في كل ساعات النهار، وينظر عبر نظارته مزدوجة العدستين، وغالباً عبر عدسة أو اثنتين يثبتهما على طرف الساعة كما يفعل الصاغة، وينبش أمعاء الساعة، ويشد ويدفع عقارب وتروساً وسقّاطات، مدندناً ألحاناً لا وجود لها، تتبخر فور تأليفه لها. في هذا المشهد كاد يدفع العديد من الأحفاد كثيري الحركة إلى حافة الجنون، إذ لطالما أصرّ على أن يجلسوا على كرسي مستقيم ليشاهدوه وهو يدندن وينبش في الساعات بلا أي طائل مرئي. هذا عمل يستحق أن تمارسه، يا صبي. أقول لك، هكذا تجني بعض *المال*. ولا شيء يستطيع المتفرج فعله سوى التقاط المقاطع المألوفة من أغنيات معروفة في دمدمته، وحتى هذا لم يستطع أي من الأولاد تحقيقه. وهناك الاستماع إلى دقات الساعات المختلفة - التي لا تصطف على الحائط فحسب، بل تشكل زحمة على الطاولات القابلة للطيّ، وعلى سرير أطفال عتيق، ورفوف مكتبة مثبتة على الحائط - وملاحظة تناغمها وتنافرها طوال الوقت. في لحظات نادرة، يبدو أن كل الساعات في الغرفة تدق معاً. لكن الدقة التالية تشير إلى بداية افتراقها، وعدم تناغم إيقاعها، وتكاد ضحية جورج سيئة الحظ تنفجر بالبكاء إزاء فكرة أنها (أنه) ستجلس هادئة، وتصغي مجدداً لالتقاط لحظة ملتقى الساعات. الضوء الوحيد في الغرفة كان صادراً عن مصباح صغير واحد مثبت إلى الحائط، ذي لمبة بقوة أربعين وات، ومصباح النيون الذي يستخدمه الصاغة، والذي كان مثبتاً إلى الطاولة ويمكن جذبه إلى كل زاوية تخطر في البال للإضاءة على أي عمق في قلب الساعة؛ ليتمكن جورج من العمل. هذا الضوء كان

مصدر الإلهاء الآخر الوحيد للضحية التي حُكم عليها بأن تشهد العملية الغامضة، المُعذِّبة، الجليدية لإصلاح الساعات العتيقة؛ والتي لا تتضمّن أي دراما: النظر إلى الغبار السابح في الفضاء. فقد كان مصباح الصائغ يسطع على الغبار في الهواء قرب الساعة التي يتم تصليحها. تغرق بقية الغرفة في العتمة والساعات وورق الجدران دائم الخضرة، ممّا يشكل مفارقة مثالية مع بقعة الغبار المضاءة والتي تطفو فوق أو عبر هالة المصباح. يتخيل الطفل أنّ نثرات الغبار سفن صغيرة تكتشف الفضاء الداخلي: العملاق يصلح آلة الزمن. فلنأمل ألا يعطس أو يأتي بأيّ حركة مفاجئة قد تشكل دوّامة تدفعنا بعيداً من مسارنا. فالسفينة مصنوعة من صوف الخروف والغضب!

كيف تصنع عشّ عصفور؟ خذ رقاقةً من علبة المصلحاتي التنكية. وبواسطة المقص، قصّ أربعة مثلثات. يجب أن تكون المثلثات صغيرة، ليست أطول أو أعرض من نصف إنش، ويفضل أن تكون أصغر حجماً إن أمكن. استخدم مطرقة وأرفع مسمار متوفر لتثقب فتحتين عند زاويتي قاعدة المثلث. والأفضل أن تستخدم إبرة خياطة كبيرة ومتينة، إذ ستنتج ثقباً أفضل. اطوِ كل مثلّث عند خط وهمي من النقطة العليا إلى منتصف القاعدة. يجب على زاوية الثنية أن تكون أقرب ما يمكن إلى تسعين درجة، بالاتكال على العين المجردة (إذ إن فائدة الأداة لا تعتمد على قياسات حسابية دقيقة). اجمع بين الثقوب بخيط صنارة صيد أو خيط سميك من المطبخ أو خيط خياطة متين. الآن، الصبر مطلوب، ضع كل قطعة من التنك على ظفري السبابة والإبهام من كل يد حيث إنّ كل قطعة تكون ممتدة ربع إنش تقريباً خارج طرف الإصبع. اربط كل قطعة إلى الإصبع عند العقلة الأولى (لكن ليس بشدة كي لا تحبس الدورة). قد يتطلب ذلك تمريناً. اجمع الإبهام والسبابة. إذا حركتهما إلى الأمام والخلف، فإن المثلّثين المطويين سيتلاقيان ويفترقان تباعاً، هذه هي المناقير. وبها ستلتقط العشب، والأغصان الصغيرة، وبقايا أشياء دقيقة لا أحد يعرف مصدرها، وخيطاناً قصيرة وطويلة، لتنسجها معاً على أغصان شجرة مختارة أو أكمة أو دغل صغير، بحسب الفصيلة التي تفكر في بناء عشّها. (هذا في حد ذاته يحتاج إلى تحضير، وأقترح دراسة أكبر عدد ممكن من الأمثلة للعشّ المرغوب فيه قبل السعي إلى الحصول على واحد جديد. بل والأفضل من ذلك هو تمضية أوقات العصر

في فصل الربيع في مراقبة العصافير نفسها وهي تبني أعشاشها، فمثل هذه المراقبة تساعد كثيراً على تعلّم الغرزة المطلوبة). لكن، تذكّر أن مواد العش يجب أن تُجمع وتُحاك سلكاً سلكاً. لا تجمع الطيور متاعها، إن جاز التعبير، دفعة واحدة، بل تفتش عن كل عود وكل قصاصة بالذات. قد تبدو هذه الطريقة "العصفورية" منافية للعقل بالنسبة إلى صانع العش تقدّمي التفكير، لكنها سرعان ما تثبت أن متعة المشروع لا تستقى من فاعليته. (واحتمال آخر مشتهى هو أنه كلما أتقن المرء غزل الأعشاش، فإنه يبدأ القيام بذلك بمنقار واحد. وعندها أيضاً تظهر غواية أخرى يجب تجاوزها؛ ألا وهي إبقاء اليد الحرة خلف الظهر والامتناع عن مدّ يد عون بشرية للطيور!).

يكتمل العش، والآن ماذا نضع فيه؟ كل ما يبتغيه قلبك طبعاً: جوز البلوط المقطوف من أكوابه، حجارة صقلها النهر، خصلة من شعر الحبيب، أسنان الحليب الخاصة بمولودك الأول... كل ما تختاره، يتسع له العش، ويمتعك أن تتأمله في كل زيارة. مع الوقت، سيتحول الريف الذي يعيش فيه واحدنا إلى كوكبة من تلك الأعشاش، وكل عشّ يأوي كنزه الصغير الخاص به.

من كتيب ضائع

لهاورد آرون كروسبي،

مع رسومات وبيانات توضيحية، 1924

دخل هاورد شمال فيلادلفيا عند السابعة من صباح يوم سبت. وعند التاسعة، كان قد باع عربته وبضاعته بعشرين دولاراً وتحول إلى صبي يعمل على تعبئة الأكياس في شركة الأطلسي والهادئ الكبرى للشاي. ***سألني المدير، هاري ميلكن، عن اسمي، ففكرت: لقد سرقت العربة وكل البضاعة التي فيها وبعتها وكأنها ملكي. إذاً، ما عاد اسمي هو كروسبي. وقلت له: لايتمان، اسمي آرون لايتمان، من دون أن أكون متأكداً من رغبتي في الاحتفاظ باسمي الأول، لكنني أيضاً لا أريد إسقاط اسمي كله، لا أريد قطع الخيط الأخير، فاستخدمت اسمي الأوسط، وها أنا أستلقي على سريري بجانب زوجتي، ليست كاثلين كروسبي بل ميغان لايتمان.***بدأ كصبي يعبئ الأغراض في الأكياس. أحبّ عمله الجديد، وأحبّ رائحة الورق الأسمر الخشن الجديد، ورزم الأكياس، وفتح الأكياس الملتصقة ببعضها الأمر الذي يُحدث قرقعة. وأحبّ توضيب

الأكياس؛ أي ترتيب العلب والأواني والقناني وعلب التنك وقطع اللحم في أوراق الجزارين لتحز جيداً بخيطان متينة، ووضع أرغفة الخبز في أكياس منفردة. افتخر بتوضيبه كل كيس مثل الأحجية، وتوضيب أكبر قدر ممكن من الأغراض في كل مستطيل فارغ بسعة قدم أو قدمين مكعبين من دون أن يصبح أثقل من اللازم؛ مما يسمح لأيّ امرأة بحمله، وكان يوازنه بشكل كافٍ حتى لا يتمزق الكيس. ففي اللحظة التي تبدأ فيها امرأة برصف بقالتها فوق طاولة المحاسبة، يشرع هاورد في ترتيبها في رأسه، وحالما تدفع علب التنك واللحم المقدد وأكياس الطحين باتجاهه، يكون قد وضّبها في خياله في رزم سمراء نظيفة، وكل ما يتبقى عليه فعله هو تجسيد التفاحات الحقيقية واللحم المعلّب وعلب الملح. بعد شهرين من تسلمه عمله الجديد، تمت ترقيته وصار مسؤولاً عن قسم الخضار، فصنع روضةً من الفاكهة والخضروات. بنى أهراماً صغيرة من البرتقال والحامض والليمون الأخضر. وولّف غابات عذراء من الخس والقرنبيط والهليون. سحرته روائح الشمع والماء البارد وأقفاص التوضيب، والقشور واللحاء وهي تتنفس إشاعات اللب الحلو من تحتها. في غضون ستة أشهر، صار مساعد مدير. عمل سبعة أيام في الأسبوع، وكتب قصائد تمجد شركته التي كانت في خضم المنافسة (***الأرضية وسخة، وأنا أشعر بأنني أبله، فركتها كثيراً بصابون المصباح الأحمر***). تزوج امرأة تدعى ميغان فين وكانت تتكلم بلا توقف منذ لحظة استيقاظها؛ آه! لقد منحني الله الرحيم يوماً آخر! هل أعدُّ البيض مع شرائح اللحم أم شيئاً آخر مع اللحم المقدد؟ لا يزال عندي بعض التوت، لكن هذا البيض سيفسد إن لم نأكله الآن، ويمكنني أن أصنع من التوت فطيرة للتحلية هذا المساء، فأنا أعرف كم تحب الفطائر وكم تهدئك قشرة السكّر فتنام، كما يفعل الحليب الدافئ بالطفل معكّر المزاج؛ مع أنني لا أعرف السبب. فقد قرأت في مكان ما أن السكر ينبّه الإنسان، لكنني لا أناقش ما أراه ينطبق في الحقيقة أمامي... وهكذا، حتى تدخل لتنام: آه! يوم آخر انقضى، وها نحن متعبان وصادقان ومتحابّان وسعيدان كحبتي بازيلاء في القشر... حبتي بازيلاء في القشر! أليس التعبير مضحكاً؟ أصلاً البازيلاء لا تأتي مزدوجة! ولو كان ذلك صحيحاً لما كان تقشيرها يستحق العناء، وسيستغرق ملء ملعقة كبيرة وقتاً طويلاً، بل ما يكفي من الساعة التاسعة وحتى الثانية عشرة، هكذا يعرف العميان مكان الطعام في صحونهم، مثل الساعة، اللحم عند السادسة

والنصف! البسكويت عند الرابعة! وهكذا... أراهن على أن هذه الطريقة كانت طريقة هيلين كيلر، هكذا، البطاطا عند الظهر تماماً! تصبح على خير يا حبي.

كانت ميغان تعمل على خط الفرز في مصنع تعليب: حسناً، أنا أفرز الفاصولياء والبازيلاء والجزر... آه! إنه لعمل صعب للغاية وممل، وعليك أن تكون سريعاً جداً! ها هو الهليون قد وصل وعليّ فرز كل حبّة بحسب حجمها ولونها ونوعيتها، في سلال مختلفة... وبسرعة، بسرعة، بسرعة! لكن القضية تستحق، فالطعام المعلب أفضل من الطازج -آسفة، سيد خضار وفاكهة!- فالفيتامينات المحفوظة في العلبة التي تُطهى فيها البازيلاء أكثر منها في القِدر التي نطهو فيها الطعام البيتي الطازج. أنا أعرف ذلك لأنهم أخبرونا أن البازيلاء المعلبة تحتوي على فيتامينات أكثر بسبب كل تلك التجارب التي يجرونها على الفئران البيضاء. يكفيهم تناول الطعام المعلب بنسبة خمس مرات أقل من تناول الطعام الطازج كي لا يصابوا بداء اللثة النازفة!

كان هاورد يجلب لها كل يوم أزهاراً، وبرتقالاً. كل ليلة، قبل أن يغادر المتجر، يتوقف عند قسم الخضار والفاكهة، متباطئاً أمام صناديق الفواكه، ومستنشقاً روائح الحامض والبرتقال. رائحتها الحمضية تنعشه. رفع أنفه عن حبات الليمون الحامض وهو لا يطيق صبراً حتى يعود إلى البيت، حيث زوجته التي تنطق بالكلمات ما إن تفكر فيها، ولا تحفظ شيئاً يدور ويدوم ويتجمّع في الصمت؛ الصمت الذي ينكسر تحتك كطبقة جليدية رقيقة تعلن بداية غرقك.

á á á

كان جورج يستيقظ في الليل، وهو بالكاد يقوى على الكلام. أحد أحفاده يجلس على الأريكة. نادى زوجته: إيرما. ماذا يا جدي؟ إيرما. لم يكن صوته أكثر من همس، وشعر بالاسم بعيداً في قعر فمه. لم يستطع تشكيل الهواء، ولم يقدر على لفظ الشطر الأول ولسانه يرتطم بخلفية أضراسه العلوية، لم ينجح سوى في لفظ الشطر الثاني من الاسم: ***ما***، فخرج اسمها أشبه بكلمة "أوما" (ماء). أوما؟ ماء؟ أتريد بعض الماء. أوما. إيرما؟ أتريد جدتي؟ آه، نعم.

نهضت زوجته عن سريرهما، حيث كانت تطفو على نوم خفيف، وحدها، لساعات قليلة كل ليلة فيما هو يحتضر. ارتدت مئزراً قطنياً أزرق فاتحاً ذا حواشٍ زرقاء

داكنة. كان حُفّاها يُجرّان على الأرض وهي تمشي بخطى صغيرة، وتتعثر بنعاسها وتعبها. توقف صوت الجرّ ما إن وطئت السجادة العجمية التي تغطي أرضية غرفة الجلوس. وقفت قرب رأسه، وانحنت فوقه وهي تمسّد وجهه: آه! جورج، أنت فرحة قلبي. ألم نحظَ بحياة رائعة معاً؟ زرنا أنحاء العالم كله معاً.أعطته رشفة مياه من كوب رسمت عليه طيور. ساعده الماء فحكى: من يقرأ لي؟ من يقرأ؟ أي كتاب هذا؟ قالت: أي كتاب يا جورج؟ هل كنت تقرأ لجدّك يا تشارلي؟قال تشارلي: لا يا جدتي. التفتت مجدّداً إلى جورج قائلة: لا أحد يقرأ لك يا جورج. قال جورج: الكتاب الكبير! قالت: لا يا حبيبي، لا يوجد كتاب. لا أحد يقرأ لك، لا أحد هنا أبداً.

انتابت هاورد نوبات أقل في فيلادلفيا. كانت لا تزال تتركه ملذوعاً ومحروقاً ويشعر بالدوار، كما لو أن ناراً كهربائية قد اجتاحته. لكنه، بعد ذلك، كان يستمتع بخدمات ميغان المبهجة. إذ تصحبه إلى السرير حيث تدلّك له صدغيه وتسقيه الشاي الساخن. وأحياناً، كانت تقرأ له من إحدى رواياتها الرخيصة التي تشتريها بعشرة سنتات. لم تزعجها النوبات. فلقد قرأت في مكان ما أنها تعتبر مبجّلة في بعض الثقافات: آه يا عزيزي! عزيزي آرون، كم كانت مريعة هذه النوبة الأخيرة! ظننتك ستكسر كل زجاجياتنا لشدة ما صلصلت الصحون والأكواب في الخزائن. يا الله! لا بد من أنك منهك. فلنضعك في السرير ولندفئك. ماذا تشمّ هذه المرة؟ أتشعر بمذاق معين؟ أرجو أن يكون اللحم، فهذا ما أعدّه للعشاء الليلة، أو فطيرة التفاح، فقد خبزت واحدة هذا الصباح. كم أنا سعيدة لأنك لم تنزف كثيراً هذه المرة. لم تعضّ لسانك قطّ، أليس كذلك؟ تلك المكنسة ذات المقبض الخشبي، اتضح أنها مفيدة. مقاسها مناسب جداً، ولا أظن أن في وسعك قضمها. إنها تبدو وكأن كلباً قد انقض عليها!

أخيراً، أقنعته بزيارة الطبيب الذي وصف له مركّب البرومايد، والذي قلّل أكثر من وتيرة النوبات. يا الله! لا أعرف أي نوع من الأطباء لديهم في كندا، لكنهم هنا في الولايات المتحدة الأفضل في العالم. مما أخبرتني إياه، لقد كنت محظوظاً لأنهم لم يطلقوا عليك النار كالكلب المسعور. عندما كنت صغيرة، كان عندي كلب اسمه السيد جيغز وأصيب بداء الكلَب، صار يزبد من زاوية فكّه، ويتعثر في الدوائر التي يركضها مرة بعد مرة حول الفناء. جاء أبي مسرعاً من المطحنة وفي يده بندقية تشارلي

ويفر، وأطلق النار على السيد جيغز فأرداه على الفور، وأنا بكيت طوال أسبوع. كان يلاحق الصبية ويمزق سراويلهم وينبش حوض الأزهار عند الجيران ويلتهم قطة على العشاء كل يوم. مسكين السيد جيغزي!

دوميستيكا بوريالس: 1) في صبيحة رأس السنة، راقبنا الغربان وهي تجمع كل ما يعينها على بناء أعشاشها من أشجار الميلاد التي رماها أصحابها على قارعة الطريق. 2) شاهدنا الزجاج المسكوب في نوافذنا يحيك الصقيع كالدانتيلا. 3) ضربنا بخيط صنارة الصيد على ورق اللعب فرفعنا بيتاً. 4) بعد عشاء يوم الأحد، ارتدينا ثياب النوم ورحنا نرمي التفاح على أبناء عمنا الصغار. 5) سحبنا القش، وقلبنا العملات المعدنية، ولعبنا الشطرنج الصيني. 6) لما حان وقت اختيار غرف النوم، تعاركنا بالأيدي كي يحصل الفائز على الغرفة الأفخر، حيث الملوك المتوجون والملكات يسبغون بركاتهم، وحيث يتواجد المهرجون الساخرون، والشبان ذوو الابتسامات الماكرة. أما الخاسر، فلا تبقى له سوى المساحة المتواضعة للاثنين والأربعة والسبعة، بالرغم من أننا جميعاً كنا مفتونين بشارات "السبات" و"البستونة" اللامعة، و"الديناري" الشاحب، و"القلوب" الحمراء كالدم والتي تكاد تنبض.

أفاق جورج للمرة الأخيرة قبل وفاته بثمانٍ وأربعين ساعة. كان فاقداً وعيه منذ يومين. حينها فهم الموقف وأراد أن يخبر من حوله أموراً مهمة. ثمة ألفان وأربعمئة دولار مخبأة في طاولة العمل في القبو. الساعة من ماركة سايمون ويلارد، المعلقة على الحائط، تساوي عشرة أضعاف ما صرّح به يوماً لأحد. في خزنة مصرفية صغيرة، هناك نسخة بخط اليد من كتاب رسالة سكارليت. وهو يحب الجميع من كل قلبه.

أفاق في الوقت الذي راحت فيه آخر أنظمة جسمه الرئيسة تتوقف عن عملها. رئتاه ممتلئتان بالسوائل وهو يشعر بأنه يغرق. عندما حاول الكلام، لم تصدر عنه سوى أصوات كالبكرة الصدئة التي تدور فوق بئر جافّة. نقّل نظره من شخص إلى آخر حول سريره طلباً للمساعدة. هذا ما كدّر عائلته، لا سيما شقيقته مارجوري التي بكت ونظرت إلى عينيه الواسعتين مكرّرة: كم يبدو خائفاً! كان مثل أبي، يبدو خائفاً، كان مثل أبي...حتى أخذها أحد الأقرباء إلى المطبخ. قال أحد الأحفاد: استرخِ يا جدي، الذعر سيصعّب عليك التنفس. شهق أكثر، وشهق أسرع. قال الحفيد: أعرف

كيف تشعر يا جدي، أشعر بذلك خلال نوبة الربو. وأنا أيضاً أخاف. أخاف أن أفقد قدرتي على التنفس، لكنني أعود فأسترخي وأستعيد أنفاسي. حصل لي هذا أنا أيضاً. نظر إلى الشاب اليافع، شخص يعرفه ويثق به. أغمض عينيه، وكان لا يزال يسمع القرقرة ويشعر بثقل جسمه الذي أصبح من دون أعصاب، لكنه أيضاً شعر بنفسه يقع بعيداً منه، وكأنه يستلقي على ضفاف شيء وحدوده؛ شيء كان في السابق على مقاسه بالتحديد، وكان العيش فيه يعني العيش في العالم. وكأنه يستلقي على ظهره تحت سطح الماء. الأصوات تعلو وتهبط، وأصوات الأجساد المتحركة تعبر فوقه مكتومة. كل شيء بدا أكثر غرابة، وكأنه آخر الآن، استوضح أحدهم يقول: لا، لا مجال، سأبقيه تحت الآن.

اختر أي ساعة في القرص ذي العقارب. إذاً، من الممكن أن تتخيل أن هدف الساعة هو إعادة العقارب إلى ذلك الوقت. وهو وقت، منذ لحظة اختياره، تتركه الذراعان ليتزحلق على سائر الإشارات والتقويمات والأرقام. تلك الإشارات الأخرى تصبح غير ذات صلة بذاتها، فهي الآن مجرد علامات تدل على اتجاه الوقت المنتقى. عندئذ يصبح من الممكن تخيل كل ترس في الساعة، وكل زنبرك فيها بوصفه ذا وظيفة جوهرية، إنما من قلب آلية شاملة، الهدف الأكبر منها هو العودة إلى الوقت المختار. بهذه الطريقة، تشابه الساعة الكون. أليس صحيحاً أن كوننا آلية تروس سماوية، تُدير كرات محمولة، وأفراناً شمسية، وكلها تتعاون للعودة بالإنسان (وبالطبع كل الجيران غير المتخيلين الذين نجهلهم!) إلى تلك الساعة المختارة التي يحكي لنا عنها الإنجيل باعتبارها ما قبل السقوط؟ وكحشرة جاهلة، يزحف البشري على وجه الساعة، ولا يرى ذلك الوجه كاملاً؛ الدائرة الكاملة للأرقام، الذراع القصيرة والذراع الطويلة اللتين تمرّان في السماء بمدارات مخمّنة، ملقيتين ظلالاً أليفة، وهما تقدمان الطمأنينة بالتكرار نفسه، لكنهما أيضاً، في النهاية، تحيّران وترجوان عنايةً بالألغاز الأعمق. الحق أن الإنسان لا يفعل شيئاً سوى الدّوس على السطح الذي يخفي سلسلة المسننات والتروس، ومن دون أدنى فكرة عما يعتمل تحته. هكذا يتملص ويهتاج على جلدة أرضنا الغبراء، جاهلاً مغزى العالم، وبلا أدنى شك، هدف الكون الذي حدده الله ولا يعرفه سواه، الذي هو خيّر، ومرعب، ويفوق الوصف. ويعرف أن الإيمان العقلاني هو الوحيد الذي يمكنه أن يسكّن الآلام اليائسة، ومحن عالمنا المدهش

والمفسد. الأمر بهذه البساطة، عزيزي القارئ، إلى هذا الحد هو منطقي وأنيق.

من كتاب **"الساعاتي العقلاني"**

للكاهن كينر دافنبورت، **1783**

في إحدى ليالي كانون الثاني عام 1972، شتّ انتباه هاورد عن الكتاب الذي يقرأه في السرير. تخيّل هيئته نائماً، وتخيّل لو أن في وسع المرء أن يخطو قليلاً إلى الوراء، وبدلاً من الوجه المسالم أن يحظى بعين الطير ليرى الشكل المنبطح وهو يطفو، ليس على وسع محيط النوم القاتم، وإنما يرتاح في الوسع ذاته، أو في أي اسم قد يطلقه المرء على ما هو خارج سلطة الجسد. حتى إن ما يبدو جسداً مرتاحاً هو على الأرجح وببساطة الصورة لما يسمى الروح، محرَّرَةً من مِلحها، كمياه البحر المتبخّرة في الشمس. الجسد الفعلي، المستلقي على السرير، يتنهد، يهمهم، يشابه قشرة، كعمود الأسطورة المالح. أما الروح، أو مهما أسميناها، فتعيد وصل نفسها بطريقة ما إلى الشيء الحقيقي، كالظل. كأنما ذاته المستيقظة تمشي في الشارع، عائدة من العمل إلى البيت. الظل الذي يسقطه رجل يتأبط كيساً ورقياً فيه ست برتقالات، وباقة صغيرة من الزنبق تحت الإبط الثاني، نسخةٌ مختزلة من ذاته التي إذا تحرّرت من بُعديها البسيطين المحدَّدَين بحجاب النور، فإنه سيكون إسقاطاً قاتماً، متمتعاً بالاستقلالية، وحرّاً في الحركة بمعزل عن ظل الرجل. الظل الذي - بحسب معرفته - حينما تغيب الشمس ويُطفأ المصباح، ويُزال كل احتمال بأن يظهر الضوء بين الجسد والأسطح التي تتشكل هيئته عليها بفعل الشمس ونور المصباح أو حتى القمر، فلا سبب يدعو للشك في أنه يحلم. ظلّه يحلم، مثله تماماً. وذلك لأنّه كان قادراً على تخيّل نفسه ظلاً لشيء آخر -لشخص آخر- وربما حتى نومه، وأحلامه، تتضمن واجبه كظلٍّ لشخص آخر وربما هذا الشخص الآخر يحلم بدوره. كان حراً في عيش حياة يقظته، في حين أن سلسلة حيواته المتعاقبة، المعتمدة بعضها على بعض، شكلت نوعاً من النقوش المتداخلة. يوم اليقظة لكل ظلٍّ هو الجانب المعاكس لنوم صاحبه. عندما حاول شرح ذلك لميغان، فيما هما مستلقيان على السرير؛ هو يحمل نسخة من ***أكثر أبيات الشعر شعبية في العالم*** والتي تستقر نصف مفتوحة كخيمة صغيرة فوق صدره، وهي تحفظ بسبابتها الصفحة التي بلغتها

من ***الأيام المساكين في مزرعة تينسلي***، قالت: لا بد من أنك لهذا السبب لا تستطيع النوم في بعض الليالي، وتأتيك تلك الكوابيس المريعة عن بيوت كبيرة مظلمة ومليئة بأشخاص تعرفهم لكنهم لا يتعرفون إليك، أو عن تلك المرأة وابنتيها التوأم المتجمدتين في جليد البحيرة، ظِلّك يحتاج إلى قيلولة، لذا، عليك أن تستيقظ كي يتمكن هو من النوم. تخيل! وإذا كان ظلّك قد ***أيقظك***، وأنت ***أيقظتني***، إذاً، فلا بدّ من أن ظلّي ينعم بقيلولته هو أيضاً! لعل ظلّينا يتفقان يا بازيلّتي الحلوة، لعلهما شريكان في الجريمة، مثلنا تماماً!قال هاورد: ربما يا حبي، ربما هذا ما يحصل.وقبّل ميغان على أذنها، وأغلق كتابه، وراح في النوم؛ مات.

خلال احتضار جورج، كان الدم الداكن ينساب من أطرافه. غادر أطرافه أولاً، ثم أسفل ساقيه، ثم انساب من يديه. كان يعي ذلك من مسافة بعيدة. عندما يتراجع الدم، يبدو وكأنه يتبخّر، كأنما الدم يتحوّل إلى روح دخانية أخف من أن تحمل معادنها. هكذا، تبخّرت دماؤه، تاركة رواسب الملح والمعدن على طريق عروقه الجافة. ساقاه اللتان بلا دم كانتا قاسيتين كالخشب. قدماه الممتلئتان بعظامه كأوزان الرصاص تحملها عروقه الجافة. عروقه المعالجة بالملح والمقواة بالمعدن هي الآن بمتانة الأحشاء، وبقوة السلاسل الحديدية. بدا الأمر وكأنّ يداً تمتد إلى صدره فتمسك بالشرايين المنبثقة من قلبه لتشدّها، وترفع عظام قدميه عبر ساقيه وجذعه حتى تصبح معلّقة من ذلك المُحرّك المنهك. وربما، فيما يشدّ ذلك الوزن الثقيل على العروق والشرايين، فإن الأخيرة تنتفض لتسوق الجسد المهترئ قليلاً بعد. لكن قلبه كان هشاً ومتعباً، وقد نفدت منه دقاته. أُرديت خُضرته. أكسيت بندبة صمغية. والآن، دمه يجري هزيلاً في غُرفِه التي تضعف فيها الدقات، فيما كان سابقاً يتدفق ويدور ويخدم الجسد، تضخه العضلة اللينة القوية.

كان وجهه شاحباً، وما عادت تظهر عليه أيّ تعابير. صحيح أن شيئاً من السلام بان عليه، أو على الأصح، بدا متوقّعاً السلام، لكنه ليس سلاماً بشرياً. فقد أسَرَ النَّفَس، وترك النَّفَس يهرب في زفرات وتنهيدات قصيرة مرفرفة. وما عاد يتفاعل مع الضوء. الظلال تمر فوقه وهو بالكاد يسجل زواياها، ويسجل مسار حجّ النهار من أطوال الظلال. بالطبع لم تسمح عائلة جورج لوهج الشمس المشرقة والغاربة بأن يقع على وجهه مباشرة، لكن قيامهم بتكييف الستائر كان مُهدئاً لروعهم، للعيون الحية والجلد

الحي، ولا علاقة لذلك ببصر الزوج، الأخ، الأب، الجدّ المستلقي على السرير. ما عادت المراعاة الإنسانية له، إذ إن مثل هذه المراعاة الآن يُعبّر عنها بتوفير الراحة الجسدية، والراحة الجسدية بلا معنى بالنسبة إليه (لذلك الشيء النائم أمام عائلته - وكان في السابق رجلاً حياً - إذ يُرى كشيء يصارع ويذوي ويموت، بحفرِ أعماق بعيدة، بعيدة من الغرفة الحية الممتلئة بأخت منتحبة وبنات وزوجة وأحفاد، والشيء بالكاد يحافظ على التمثيلية الإيمائية في الحياة البشرية)، إن هذه الراحة تعني له الآن بقدر ما قد تعني لواحدة من ساعاته الموزعة في بيته ويجب مسح غبارها وإراحتها بزيت بذر الكتان. فهو يُقلّق عليه ويُحدّ عليه قبل أن يصبح كان(فهكذا استعد الأحياء، أو يحاولون أن يستعدوا، للمجهول الذي كان، بتخيّل كانهذه فيما هي لا تزال تقترب، ولعل ذلك صحيح، أن يحدّوا بسبب اللامفر من كان، وكلٌ يطبق كانخاصته، بشرية. رعب كل كانمرتبطاً بذاك الشيءوالذي أوشك كثيراً على أن يصير كانلدرجة أنه لن يقبل، أو ببساطة لا يستطيع أن يقبل أساهم الإنساني)، فيما التروس وقطع الزنبرك المعطّلة تتوقف عن حركتها، وأوزان الرصاص تُنزّل للمرة الأخيرة وهي غير قابلة للإصلاح.

كان قد اعتقد أنه ساعة، أو أنه مثل الساعة، مثل الزنبرك في الساعة؛ يتعطل وينفجر حين تصيبه النوبة. لكنه لم يكن مثل ساعة، أو على الأقل كان مثل ساعة بالنسبة إليّ. لكن لنفسه؟ من يدري؟ إذاً، لم يكن هو الذي كان مثل رصيف المرفأ، بل أنا.

حدثان وقعا في العام 1953: افتتحت الطريق الجديدة التي وصلت بين الولايات، ومرضت والدة الزوجة الثانية لهاورد في بيتسبرغ. كانت الوالدة كاثوليكية متزمتة، ولو أنها علمت أن ابنتها متزوجة من ابن كاهن بروتستانتي منهجي، فإن أي فرصة في شفائها كانت لتتبخر. كانت الوالدة لتموت وفمها مليء باللعنات المختلطة باسمي، كما قالت. وهذا يعني أن عليه تمضية ليلة الميلاد وحيداً. خبزت ميغان فطيرة موز بالقشدة ورغيف لحم. سار معها إلى محطة الحافلات وساعدها لتستقل حافلة الساعة الرابعة والنصف إلى بيتسبرغ. ظلت تحكي طوال الوقت. فتحت نافذة الحافلة لتطلب منه أن يخرج مثلّجات الفانيلا من الثلاجة قبل 15 دقيقة من تناولها مع الفطيرة، لأن ذلك يجعلها طرية، تماماً كما يحبها، وقالت: أحبك. قال: سأكون

بخير، سأكون بخير.وكان لا يزال محتاراً من فكرة أن لديها أمًا في بيتسبرغ. طوال خمسة وعشرين عاماً كانت لديها أمٌ في بيتسبرغ.

قبل خمسة أشهر، أنجزت الطريق السريعة العابرة للولايات. امتدت في خط واحد طويل صعوداً إلى السواحل الشرقية. مهاجرون، عمال متجولون، عمال يدويون ضربوا وحفروا ونسفوا وفتحوا الأرض عبر الغابات والأنهار والمنخفضات والجبال والمستنقعات، ثم حددوا الطريق بحصى جيّدة وملساء، وفرشوا عليها الإسفلت الأسود الساخن وجعلوه سويّاً وناعماً. ولتلك الطرقات السريعة الجديدة أرقام بدلاً من الأسماء. في اليوم الذي سبق الميلاد، وضع شطيرة لحم مطبوخ بارد وست قناني كولا في كيس ورقي، مع حقيبة صغيرة لأغراض الحلاقة، واتصل بصديقه من "آي أند بي"، جيمي دريزوس. سأل جيمي إن كان باستطاعته استعارة سيارته، وهي سيارة فورد سيدان قديمة. قال جيمي: طبعاً، طبعاً. حموي وحماتي سيأتيان لزيارتنا هذا العام. بالطبع، بالطبع يمكنك استعارتها يا صديقي. استقلّ حافلةً إلى بيت جيمي دريزوس في الجزء اليوناني من البلدة. كان جيمي يبدّل المصابيح على شرائط الإضاءة التي لفّها على درابزين السلالم المفضية إلى بيته. عرض عليه جيمي كأساً من الشراب. قال: لا، شكراً جيمي، لا. عرض عليه جيمي بعض الطعام ليأخذه معه إلى البيت. فقال: شكراً يا جيمي، شكراً لك ولزوجتك. أعطاه جيمي المفاتيح وصحناً من لحم الخروف قائلاً: انتبه إلى الدوبرياج يا صديقي. هز رأسه وداس على دوّاسة الدوبرياج، خارجاً بالسيارة من موقفها. وضع ناقل السرعة على الأول وأرخى قدمه عن الدوبرياج، فيما داس أكثر على دواسة الوقود. قرقعت السيارة، وعنّت، ثم توقفت. صارت تندفع وتتوقف. نظر إليه جيمي دريزوس من حيث يقف على السلالم، حاملاً في كل يد لمبة ملونة، وصاح: ماذا؟ أكنت تشرب يا صديقي؟وضحك. لوّح لهاورد الذي ضبط ناقل السرعة وزحف بسرعة خمسة أميال في الساعة إلى أن بلغ مفترق الطرقات، فاجتازه، وراح يتعارك مع السيارة مجدّداً، هذه المرة بعيداً من ناظري جيمي دريزوس. أمضى أربع ساعات وهو يتمايل بالسيارة في شوارع فيلادلفيا ليلة الميلاد ويعلّم نفسه القيادة. عند التاسعة مساء، عندما بدأ ثلج خفيف يتساقط، قاد سيارة جيمي، الفورد، على الطريق السريعة المتجهة شمالاً.

كان السر الذي أخفته عنه ميغان هو أن لديها أمًا في بيتسبرغ. أما السر الذي

أخفاه هو عنها، فهو أنه اقتفى أثر عائلته وهجراتها عبر نيو إنغلاند. اتصل بمكاتب البريد ليتأكد من العناوين. اتصل ببدالات الهاتف واستحصل على أرقام الهواتف الجديدة. عندما انتقل ابنه جورج إلى إينون؛ ماساشوستس، أعطاه عامل الهاتف رقمين لشخصين يدعيان دجي. كروسبي. اتصل هاورد بالرقم الأول. رفعت امرأة عجوز السماعة قائلة: هنا السيدة جاس كروسبي، مع من أتحدث؟ أنهى هاورد الاتصال ودوّن الرقم الثاني في مفكرته.

في مكان ما في كونيكتيكت، توقف ونام أربع ساعات على المقعد الخلفي للفورد، واستيقظ متجمداً من البرد. كان قد أوقف السيارة خلف محطة للوقود. تناول حقيبة الحلاقة واستخدم حمام المحطة. نظّف أسنانه، وسرّح شعره، ورش بعض ماء التونيك عليه، ثم حلق ذقنه بالشفرة الحادة التي أعطاه إياها والده عندما كان في السادسة عشرة من عمره، والتي أبقاها حادة كفاية لدرجة أنها تجرحه أحياناً بمجرد أن ترخي بثقلها على جلده. عند الظهيرة، غادر الطريق السريعة عبر المخرج ذي الرقم 24. انعطف يساراً نحو شارع ماين، وسار مسافة ثلاثة أميال. انعطف يساراً مرة ثانية إلى شارع آربور، وراح يبطئ ناظراً إلى أرقام الشوارع، وإلى الأبواب المغلقة وصناديق البريد. وصل إلى بيت أصفر صغير ذي مصاريع خضراء على النوافذ. كُتب على صندوق البريد عند آخر الطريق المفضية إلى الباب الأمامي: جورج دبليو كروسبي. ومن دون أن يوقف المحرك عن العمل، خرج هاورد من السيارة، وعبر المدخل المرصوف، وقرع باب منزل ابنه.

هومو بورياليس: 1) كنا نركل قشرة الخشب الميت عن جذوع الأشجار، ليظهر الخشب الطري تحتها شاحباً مثل النشارة، وأحياناً تتداخل معه رسومات غريبة تبدو كالكتابات التي أدخلت على الخشب بقلم حبر أو أداة حفر دقيقة، قبل أن يرتدي الجذع لباس قشرته الخارجية؛ جلداً خشناً، فتاتاً للتورية لتغطية اللغة السرية. اكتشفنا تلك اللغة الهيروغليفية الجديدة التي كانت بالنسبة إلينا كالإلهام، وكأنها رسائل تركها لنا أحدهم، لنا وحدنا، لنكتشفها ونتأملها ونمرر عليها أصابعنا ثم نخدشها بغصيننا، لكن ليس لنفهمها، بل لنتركها كالطواطم لمن وجدوا من أجلها أما نحن فنكمل سيرنا بين الأكمة. 2) اخترعنا قصصاً تدور عن رجال وشموا على أجسادهم تعليمات معقدة وهامة. الوشوم مرسومة بحبر يدخل عميقاً تحت الجلد.

CamScanner المسوحة ضوئيا بـ

وهؤلاء الرجال يُعرفون من ندبات طويلة على ظهورهم، والتي يجب إعادة فتحها، لينفلق الجلد عنها كمصراعي الباب كاشفاً عن جدائل العضل والنص السري. طبعاً، لا يعرف هؤلاء الرجال أنهم حاملو تلك الإشارات. وطبعاً، مرّ الأشخاص المعنيون بقراءة تلك الرسائل بعملية طويلة جداً وصعبة لفك شيفرة الدلائل المحجوبة والاتجاهات، حتى اهتدوا إلى هؤلاء الرّسل، وذلك لحماية الرجال والرسالة. الباحث يجد الرسول، ويجد نفسه وقد تعرّف إلى الرسول الذي كان يحاول أن يبيعه حصاناً عجوزاً، أو يجلب له الفطور في فندق صغير، أو يتذمر من السياسيين خلال استراحة القهوة الصباحية. 3) كانت تلك القصص تنمّ عن جهل. أخيراً، استشعرنا بلاهة أن ننسب المجهول إلى عصبة سرية، إلى مؤامرات. لطالما كان كل شيء محجوباً. الفهم يلمع حين يلمع، لسبب لا ندركه، وكنا راضين. بنينا بلدتنا، حينئذٍ، مستخدمين كل ما صادفناه، فعشنا في أكواخ من شعر، في أعشاش من ذُرّ ولمامات ومن الخيطان التي كنا نمررها في قشور الجوز، ونعلقها في السقف بورق لاصق أو بلبان قديمة، لأن الخيطان كانت مختلفة عن المزاليج التي وجدناها. صممنا مبنى البلدية من قشات الشرب (بعضها ذو ثنية وبعضها الآخر لا ثنية له) وطاسات عجلات السيارات والورق الفضي الذي يكون داخل علب السجائر. مجموعات من الناس تعيش في ثنايا الشجر، تحت خيم جرائد يوم الأحد، والتي استحال لونها بنياً بفعل الشمس. حينما تمطر، تنتفخ تلك المباني، وتصبح كالعجينة، وتُجرف، فيجفف السكّان أنفسهم في الشمس لدى ظهورها مجدداً، ويبدأون، من جديد، بجمع علب التنك والقطع النقدية وعلب الكبريت وعلب الورق المقوى الملوثة بالزيت والتي كانت ذات مرة ملأى بالبطاطا المقلية وحلقات البصل. 4) البحر الأخضر تحوّل إلى الرمادي، وسطحه لُفّ كغشاء. حين غطسنا بحثاً عن الصدف، انفتح من أجلنا بلا مقاومة، ثم خُتمت الشقوق السائلة خلف أصابع أقدامنا المرؤسة. نتحسس ما حولنا ونحن عميان في جسده الرصاصي الصقيل، ننخل رمله لنخرج بحجارة ملساء لأغطيتنا المصنوعة من ريح وندى، وما يعلق منه في شعرنا حين نطفو، يعود فينهمر كدقيق الفضّة ليلاقي نفسه، جزيئاته، الرمل الصقيل، ذرّاته. كنا نسافر قطعاناً. اخترقنا سطوحاً ولمحنا منحدرات حادة، وأعمدة الصوان المكللة بأغصان التنوب. رأينا شواطئ ثلجية وعواصف رملية. 5) حينما حان وقت الموت، عرفنا، وذهبنا إلى الفناءات العميقة حيث نستلقي

وتستحيل عظامنا نحاساً. يأتي من يلقنا. نُستخدَم في تصليح الساعات وعلب الموسيقى، تثبّت أحواضنا على التروس، وتُلحَم أعمدتنا الفقرية فتصبح أعمالاً كبيرة. ضلوعنا تصبح مسننات ترسية، ترقص وتدق، تُمزّق بالأنياب. هكذا، أعيد لمّ شملنا أخيراً.

آخر ما تذكره جورج كروسبي وهو يحتضر كان عشاء ليلة الميلاد عام 1953. قرع جرس الباب، وكان قد جلس لتناول الطعام مع زوجته وابنتيه بيتسي وكلير اللتين تجلسان الآن قرب سريره هزيلتين، وشاحبتين، ومنهكتين. الابنتان اللتان أحبهما كثيراً وأدرك أنهما ستكونان صغيرتي والدهما حتى اليوم الذي يكفّ فيه عن تدليلهما، وكان ذلك يوم وفاته؛ أي اليوم. كان يحتضر، ولم يتذكر أنه نهض عن الطاولة مدمدماً: بحق الله من يقرع الباب الآن؟ وهو يسير باتجاه الباب. تذكر كل الوقت الذي كان يمتد بينه وبين نفسه، بين صبي في الثانية عشرة من عمره، ورجل في منتصف العمر هو الزوج والأب اللذين أصبح عليهما. لكن، كل هذا الوقت ينكمش ويمسي صفراً حين يتعرف إلى الرجل العجوز الذي يقف عند باب بيته، والده الذي لم يره منذ أن غادر هاورد أرون كروسبي - والده - بيت العائلة في ويست كوف؛ ماين، ذات ليلة، بعد جولة في المقاطعة لبيع الفراشي والصابون لسيّدات البيوت، وبعدما ودّع عائلته عبر نافذة المطبخ المعتم، ثم صفع بغله الأمير إدوارد بقضيب من خشب الجوز مواصلاً مسيرته بعربته على طول الطريق حتى وصل إلى فيلادلفيا بلا اسم.

Telegram:@mbooks90

جلس والده على طرف الأريكة، وقبعته في حضنه، ومحرّك سيارته المستأجرة يبرد في الخارج. كان البخار المتصاعد من الطعام يدل على سخونته، لكنه قال: لا، لا، لا يمكنني أن أبقى. سأل عن كل شيء: هل أنت بخير؟ كيف شقيقتاك؟ والدتك؟ جو؟ آه! فهمت. وهذه من؟ آه! بيتسي. وأنتِ؟ كلير، نعم. نعم، نعم، طبعاً تشعرين بالخجل... فأنا عجوز غريب، نعم. حسناً، يستحسن أن أغادر. جميل أن أراك ثانية يا جورج. نعم، سأفعل. وداعاً.

(* Love seat هو عبارة كرسي مزدوج لشخصين.

(* hook كلاّب أو عقيفة.

(* اليانكي هو أحد أبناء نيو انغلند في الولايات المتحدة الأميركية.

(* مثل جلد السمك.

(* الساباتي: نسبة إلى مَن يعتقدون من اليهود وبعض النصارى أن السبت يومُ راحةٍ وعبادة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner